# لابي شجاع وليس لمسكويه

بقلم الدكتور علي جواد الطاهر

* * *

كان

من شروط التخرج في دار المعلمين ببغداد ان يؤلف الطالب « رسالتين » : واحدة في التربية وثانية في مادة التخصص . ويستعد الطلبة لذلك منذ السنة الثالثة استعدادا عاما . وكان « مسكويه » اول – وآخر – ما تبادر الى الذهن ، وقد دل عليه كتابه « تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق » .

وشرعت اقرا عنه هنا وهناك ، مادة في دائرة المعارف الاسلاميه ، وترجمة في « معجم الادباء » واقرا له « تهذيب الاخلاق » و « الفوز الاكبر » و « الفوز الاصغر » و « تجارب الامم » .

ان مسكويه حبيب الى النفس لا يلبث ان يصبح صديقا ، اسلوبه سهل يسير لا يتكلف فيه ويتصنع كما تفعل الكثره الكاثره من كتاب عصرنا ، وهو يعرض المسائل الفلسفية عرضا واضحا لايثقله ما يثقل آثار الاخرين ، ولعله اديبا اكثر منه فيلسوفا ، او انه فيلسوف لا يتحدث الا بما يتمثله جيدا ويصبح جزءا من وجوده .

وفي « تجارب الامم » ذخيرة عن الامم وعن العصر البويهي .. وعن مسكويه نفسه ، واذا ، فلا بد من ادامة النظر فيه ، وقراءته اكثر من مرة ..

وانجز « البحث »وقدم اواخر العام الدراسي ١٩٤٤ – ١٩٤٥ ، وانتهت الخطوة الرسمية بسلام .

ولم يكن مسكويه من ينتهي بانتهاء مرحلة ، لانه يبقى في النفس ، ويظل صاحبه يتتبع اخباره ، ويطالع كل ما مت اليه بصلة .. وكنا نقرأ للدكتور زكي مبارك كثيرا ، لاننا نجد فيه طرافة وجراة ، اما ادعاؤه الطويل العريض فكنا نأخذه مأخذ الظرف ، وربما سمينا هذه الظاهرة المميزة « بالزكمبريات » .. نحن نقول : الدكتور وهو يقول : الدكاتره .. كان يفخر بكل شيء ، ولكن اعتزازه بكتابه « النثر الفني في القرن الرابع » لا يعدله اعتزاز ، فهو يذكره لمناسبة ولغير مناسبة ، ويتحدى به من يستحق التحدي ومن لا يستحق . ومع هذا – وربما لهذا – لم يرد على الذهن لدى كتابتي البحث عن « مسكويه » .

ولكن ، ما لا يدرك في حينه ، يمكن ان يستدرك بعد حين ، وهكذا كان ، ولنقرأ « النثر الفني في القرن الرابع » :

الكتاب – في الاصل – الرسالة التي نال بها الدكتوراه من باريس سنة ١٩٣١ ثم نقله الى العربية وطبعه بالقاهرة عام ١٩٣٤ ثم اعاد طبعه بها عام ١٩٥٧ .

ولنقرأ ما جاء فيه عن مسكويه (١) ، وهو يتحدث عن « السجع والازدواج » فيقول (١) :

«وليتبين القارىء الفرق بين كاتب يتأنق كالتوحيدي وكاتب يترسل كابن مسكويه نعرض نموذجا مما قصه صاحب تجارب الامم عن ابي نصر كاتب عضدالدولة اذ قال:

كان بالقصر جماعة من الغلمان تحمل اليهم مشاهراتهم من الخزانة بالحضرة ، فلما كان في آخر شهر قد بقي منه ثلاثة ايام استدعاني وقال لي : تقدم الى الخازن في بيت المال بأن يزن كذا وكذا الف درهم ويسلمها الى ابي عبد الله بن سعدان ليحملها الى نقيب الغلمان . فقلت: السمع والطاعة . فانسيت ذلك وسألني عنه بعد اربعة ايام ، فاعتذرت بالنسيان فخاطبني بأغلظ خطاب ، فقلت امس كان استهلال الشهر ، والساعة تحمل المادة ، وما ههنا ما يوجب شغل القلب بهذا الامر ، فقال : المصيبة بما لا تعلم ما في فعلك اكثر من الفلط اكثر منها فيما استعملته من التفريط ! الا تعلم انا اذا اطلقنا لهؤلاء الغلمان ما لديهم وقد بقي في الشهر يوم كان الفضل لنا عليهم ، واذا انقضى الشهر واستهل الاخر حضروا عند عارضهم فاذكروه فيعدهم ،ثم يحضرونه في اليوم الثاني فيعتذر اليهم ، ثم في الثالث فتبسط في اقتضائه ومطالبته السنتهم فتضيع المنة وتحصل الجراة ، ونكون الى الخسارة اقرب منا الى الربح » .

ويذكر الدكتور زكي مبارك في هامش الصفحة مصدره الذي استقى منه هذا النص : تجارب الامم ج ٣ ص٤٥ . وكنت حديث عهد بتجارب الامم فما تذكرت اني قرأت فيه مثل هذا الخبر . ولا بأس ، فلنقرأ ما يقوله الدكتور زكي مبارك :

« .. ولكن هذا اليسر في رواية الخبر لم يمنع ابن مسكويه من التأنق في التعليق عليه اذ قال : « ولعل عضد الدولة نظر في هذا الوقت الى ما وجد في سيرة المعتصم رضوان الله عليه . وهل ينكر لبني هاشم ان يقتدى بأقوالهم او يهتدى بأفعالهم ، وهم الاصدقون اقوالا والاكرمون افعالا والاشرفون انسابا ، جبال الحلوم، وبحار العلوم ، واعلام الهدى ، وساسة الدين والدنيا ، وفرسان الحروب والمحاضر ، واملاك الاسرة والمنابر ، الى مكارمهم ينتهي الكرم ، وبمآثرهم تنجلي الظلم ، المعتصم بينهم المعتصم » .

اشهد اني لم اقرأ لمسكويه مثل هذا ، وليس من داع لمسكويه لان يصل عضد الدولة بسيرة خلفاء بني العباس، ولا من داع لان يتملق هؤلاء الخلفاء وهو الذي يعيش في ظل بني بويه ، بل في ظل عضد الدولة البويهي وكان الخليفة العباسي ذليلا مهانا . لا بد من ان يكون في الامر سر ! ولنرجع الى المصدر نفسه ، ورجعنا قرأنا ان النص الذي استشهد به الدكتور زكي مبارك على انه لمسكويه « المتوفي سنة ٤٢١ » في كتابه تجارب الامم ، ليس

لمسكويه . وانما هو للوزير ابي شجاع محمد بن الحسين الملقب ظهير الدين الروذراوري المتوفي سنة ٤٤٨ . لاننا نعلم ان المطبوع بتصحيح هـ. ف آمدروز . القاهـــرة ، مطبعة شركة التمدن الصناعية جزءان : الاول ( وهـــو الخامس من الاصل الذي نشره ليـون كايتاني مصورا ) عام ١٣٣٢ ــ ١٩١٤ ، والثاني ( وهو الجزء السادس من الاصل ) عام ١٣٣٣ ــ ١٩١٥ وينتهي بحوادث من سنة ٣٦٩ وهو «اخر ما عمله الاستاذ ابو علي احمد بن محمـد بن يعقوب مسكويه » .

اما ما سماه الدكتور زكي مبارك بالجزء الثالث فهو ليس جزءا ثالثا من تجارب الامم ، وانما هو ــ كما مبين على الغلاف ــ ذيل تجارب الامم للوزير ابي شجاع .. من سنة ٣٦٩ الى ٣٨٩ ، وان الصفحة الـ ٤٥ التي اقتبس عنها نصه هي الصفحة ٤٥ من كتاب ابي شجاع وتقـع حوادثها عام ٣٧٢ ولم يبلغ مسكويه في كتابة تأريخــه هذا العام . والمسألة واضحة ، فما علينا الا ان نفتـح ص ٤٥ من « ذيل تجارب الامم » حتى نرى النص كاملا : «كان بالقصر جماعة من الغلمان تحمل اليهم مشاهراتهم .. وتكون الى الخسارة اقرب منا الى الربح » ونرى « ولعل عضد الدولة نظر في هذا الوقت الى ما وجد في سيـرة المعتصم .. »

وهذا التعليق اصبح ممكن التفسير ميسوره . فلابي شجاع كثير من الدواعي التي تدفعه الى الثناء على خلفاء بني العباس ، ويكفي انــه كان وزيرهـم « وزر للمقتدي بالله سنة ٣٧٦ » في العهد السلجوقي ، ولا بد من انه قال ما قال قبل ان يعــزل ويصرف عن الوزارة ويلزم « بالقعود في داره » ..

ولنعد الى « النثر الفني » لنسمع الدكتور زكـي مبارك يقـول (٣) : « ويمكـن المضي فـي استقـراء الفصول الجيدة مما كتب ابن مسكويه في التاريخ فهـو يسرد الاخبار في يسر ملموس ثم يعقب عليها بتأنق مقبول وانظر قوله في خواص الملوك :

« ومن حسن سياسة الملوك ان يجعلوا خاصتهم كل مهذب الافعال ، محمود الخصال ، موصوفا بالخير والعقل معروفا بالصلاح والعدل ، فان الملك لا تخالطه العامة ولا اكثر الجند ، وانما يرون خواصه : فان كانت طرائقهم سديدة ، وافعالهم رشيدة ، عظمت هيبة الملك في نفس من يبعد عنه ، لاستقامة طريقة من يقرب منه ... واذا كان خواص الملك ممن يقدح فيهم ، وتذكر مساويهم ، قلت الهيبة في النفوس ، فأظهر الجند استقلالا لامره ، ثـم صار الاضمار نجوى بينهم ، ثم زادت الحيرة فصارت النجوى اعلانا ، فعند ذلك تقـع المجاهرة ، وترتفـع المراقبة ، ويتحكمون عليه تحكم الآمر لا المأمور ، والقاهر لا المقهور » .

ويذكر الدكتور زكي مبارك في هامش الصفحة من كتابه مصدر النص : تجارب الامم ص ١٨٨ .

وبامكاننا ان نجد الخطأ في هذه النسبة بالرجوع الى المصدر فنراه من انشاء ابي شجاع في ذيل تجارب الامم فهو كامل على الصفحة ١٨٨ منه .

ومما يذكر ان الدكتور زكي مبارك عندما يذكـر مراجع مؤلفه في آخر الجزء الثاني منه لا يورد « ذيـل تجارب الامم لابي شجاع » ، وانه اذ يورد «تجارب الامم» يقول : « طبعة مرجوليوث » وقد رأينا انه رجع الى طبعة هـ. ف. آمدروز .

ان الذي وقع للدكتور زكي مبارك قد وقع ، وقـد يقع لغيره . ولقد مضى على ملاحظتي للسهو الحاصـل اكثر من عشرين عاما لم اتحدث عنه خلالها ، ولم اذعها ، ولعلي لو كتبتها ايام كان الدكتور زكي مبارك حيا لاقتنع بها وغير من كتابه ما غير في طبعته الثانية .

لقد طويت الملاحظة كأنها لم تكن ولا ادري سرا لذلك.

اما اليوم فقد رأيت واجبا تسجيلها ، فقد قـرأت ان القاهرة تعتزم اعادة طبع « النثر الفني فـي القرن الرابع » اكراما لذكرى الدكتور زكي مبارك ، فوددت ان يتنبه القائمون على المشروع الى مثل هذه الملاحظة ، والى ملاحظات اخرى ، بمعنى ان يوكل الكتاب الـى استـاذ مختص بالقرن الرابع ليذيل عليه بهوامش مختصرة مبينا ما فات المرحوم مبارك وما جد من دراسة وتحقيق بعده .

ان مثل هذه الملاحظات تخدم الحقيقة ، وتخـدم القارىء ، وتزيد على قيمة الكتاب قيمة . واخشى مـا يخشى ان يعاد الطبع بالتصوير ( الاوفست ) . لقـد دخل « النثر الفني » في دائرة « روائع » البحث الحديث ولم يكن الدكتور زكي مبارك مبالغا كثيرا اذ قال : « ان هذا الكتاب اول كتاب من نوعه في اللغة العربية ، او هو ــ على الاقل ــ اول كتاب صنف عن النثر الفني في القرن الرابع ، فهو بذلك اول منارة اقيمت لهداية السارين في غيابات ذلك العهد السحيق » .

الرياض علي جواد الطاهر

(١) هو ابو علي احمد بن محمد يرد على «مسكويه» وعلى « ابن مسكويه ، وقد يكون الاول أصح . (٢) الجزء الاول ، ط ٢ ( م. السعادة بمصر ١٣٧٦ ــ ١٩٥٧ ) ص ١٢٣ . (٣) ج ١ ص ١٢٤ .

## دمعة

لا تستحي ، يا عين ، من دمعة
اما استباحت سرها في الخفاء
لا تمنعيها ، فهي فـي عجزها
قد تهب المحروم بعض العزاء

حلب علي الناصر



الدكتور محمد رجب البيومي

# كيف يؤلفون الكتب

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

* * *

كان من رأي اديبنا الكبير الاستاذ امين الخولي رحمه الله ان توجد رقابة أدبية علمية على المؤلفات التي يخرجها الكتاب ، بمعنى أن تؤلف لجنة من كبار الاساتذة المتخصصين لفحص الانتاج العلمي والادبي قبل ان يظهر للناس ، فاذا رأت به ما يستحق النشر لفائدته الجديدة أقرته واذنت باذاعته ، واذا كان مجرد تكرار لما سبق ، دون اضافة حقيقية لقضايا العلم والادب فالاولى به ان يريح الناس من وجوده ! ولكن اسم الرقابة ثقيل بغيض ، وهو في مجال التأليف العلمي اشد ثقلا واكثر نقصا لانه يؤذن في بعض دلائله بتقييد حرية الفكر ، وقد تنقلب الرقابة الى هيئة متحكمة غاشمة تمنع الجيد والرديء معا لبعض الاغراض التي تسيطر على البشر فلا يكاد ينجو منها الا من شذ وندر ! لذلك كان اقتراح الاستاذ الخولي رحمه الله وقد جهر به في بعض ندوات الهلال بعيدا عن التنفيذ .

ولنا ان نحلل الباعث الملح الذي دفع اديبامن قادتنا الموجهين كالاستاذ الخولي الى مثل هذا الاقتراح ، لنلمسه واضحا في اكثر ما تنشره المطابع اليوم من مؤلفات ، فقد دأب أناس على التأليف المتتابع لا لشيء سوى انهم يجدون الناشر ! او يملكون نفقات الطبع فاذا بحثت ما يكتبون فانك ترى غرائب من الفهم وعجائب من التفكير تصبح مجال التندر والتهكم لا موضع الافادة والتعليم ، هذا اذا كان الكتاب يدور حول موضوع جديد لم تسبق معالجته ، او عولج من زاوية غير الزاوية التي ينتحيها المؤلف الجديد ! اما اذا كان الكتاب تكرارا لما سبق أن كثر الخوض في موضوعه فانك في جميع صفحاته لن تعثر على شيء لا تعلمه !! وموضع الخطر في ذلك ـ لدى الاستاذ الخولي ومن ينحو منحاه في الحرص على مستوى التأليف ـ ان المؤلف من هذا الطراز لا يفتأ يتابع مؤلفاته التافهة دون سأم ، وسيقرؤها الناشئة على أنها نماذج جيدة للتأليف ، اذ أن الصفحة الاخيرة من الكتاب من غلاف الكتاب تحمل فهرسا بأسماء المؤلفات السابقة للكاتب ، فتلقى في خواطر الناشئة ان الرجل كاتب كبير وانه أنموذج يحتذى ، وهو بعد لا شيء ، فاذا صار صاحب الفهرس الضخم من المؤلفات نموذجا يحتذى ، وذاع له بين القراء صيت مدو، ووجد بين مقرظي الكتب في الصحف ، وكاتبي المقدمات الكاذبة في صدور مؤلفاته من يشيد بعمله ، ويثني على موهبته ! اذا صار صاحبنا كذلك فقد انتقلت عدواه الى لباب الادب والعلم ، وهبط بمستوى التأليف الى قرار سحيق .

ونحن اذ يطول بنا العجب العجاب لهذا التكالب النهم على التأليف دون موضوع ودون كاتب حتى اصبح لدينا من يجاهر بأن مؤلفاته قد جاوزت الثلاثين والاربعين من الكتب ، متخذا ذلك مجال فخره وموضع تعاليه انما نشير الى المقياس المضطرب الذي يزن به الكاتب الدعي نفسه بين الكتاب والى النظرة الساذجة عند عامة القراء تلك التي تجعل الكم العددي في التأليف مجال التقدير وموضع الرجحان لدى المقارنة بين المؤلفين ! وقد نسوا ان ما خطه الكاتب المسكين في جميع مؤلفاته سراب بقيعه يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ! انهم نسوا ذلك لانهم يجهلون حقيقته فقد لمع امامهم السراب في الصحراء فجزموا أنه ماء !

ونحن نعرف ان الكم العددي في التأليف كما يدل على الغزارة والعمق ، والتمكن من البيان وجودة القريحة وقوة الاستعداد وكمال الموهبة عند الخاصة من الباحثين ذوي الصبر الدائب ، والفحص اللجوج ـ وما اقل هؤلاء في كل مكان ـ فانه يدل على الخواء والتخبط والسطو المقنع ، والفثاثة الركيكة لدى العامة من حاطبي الليل في التأليف ، ونستطيع ان نذكر ادباء مرموقين تسنم الاديب منهم مجده العلمي بكتاب دسم واحد ، أفرغ فيه جهد الحريص ، وصبر على مشاق البحث ومعاناة النظر حتى وصل الى نتائج جيدة تعزى اليه ، وتقرن به ، وهو بعد صاحب كتاب واحد ، لا خمسين كتابا ، كما نعلم من متابعة الحركة الثقافية في كل عصر أن مؤلفا واحدا يثير من الضجة والنقد عاصفة تمتد سنوات وسنوات وتعقب كتبا كثيرة في مجال النقد والتمحيص ما بين مؤيد ومعارض ، ولست أرى في هذه الضجة الحادثة مثالا

يقصد ، او امنية ترجى ! وانما انبعث دويها عن ضرورة ملزمة احدثتها جدة الآراء ، وصعوبة منزعها ، وقوة احتجاجها وفي ذلك ما يدل كل الدلالة على تمكن المؤلف من موضوعه واستعداده لـه ، وحشده جميع الطاقات الممكنة لديه في اتمامه ونضوجه ! وهذا وحده ما ينبغي لكل مؤلف جاد ان يلتزمه ، واذا كان في هذه الآراء الجديدة ما ينقد ويخذل فتلك طبيعة الاشياء ، فلم لايتأمل المكثرون ذلك ليعلموا ان البغاث كثير العدد دون جدوى وام الصقر مقلال نذور .

ونحن مع ما نشهد من تكالب الادعياء على التأليف المتواصل دون اعياء ، نشهد مع ذلك تقديرا للتبعة وعزوفا عن الضجيج الصاخب لدى بعض الاصلاء من المؤلفين ، ممن يقدرون مكانة التأليف ، ويعرفون ان الكتاب الجديد لا بد ان يحمل أشياء جديدة ذات بال ! لذلك نرى فريقا من نابهي المفكرين لدينا لم يجرءوا على متابعة التأليف وهم بعد اساتذة المادة ، واصحاب القيادة العلمية في بيئاتهم الثقافية ، كل في دائرة اختصاصه ! بل ان فيهم من عكف السنوات الطويلة على تأليف كتاب دقيق المنهج جديد المنزع ، قوي النتائج ثم سمح لنفسه ان يئد كتابه وادا دون ان يخرجه للناس مع ما تحمل فيه من معاناة البحث ، وكد التأمل ، وسد الثغرات ، وتلمس الصوى في بيداء مجهل يضل بها الدليل :

حدثني استاذي الكبير احمد حسن الزيات ان المغفور له الاستاذ عبد الحميد العبادي قد الف كتابا تاريخيا يصور حوادث الصدر الاول من تاريخ الاسلام من الناحية السياسية ، كما فعل الاستاذ احمد امين في تصوير هذا العصر من الناحية العقلية في كتاب فجر الاسلام وكان العبادي واحمد امين وطه حسين قد اتفقوا على اصدار موسوعة ثقافية كل في نوع اختصاصه ، فثابر احمد امين حتى اصدر الفجر والظهر والضحى في ثمانية اجزاء ، وتنوعت اعمال الدكتور طه فصرفته عن مشروعه ! اما الاستاذ العبادي فقد اصدر الجزء الاول من كتابه في ستمائة صفحة تنطق بالمعاناة المريرة والجهد الشاق ثم قراه على نفر من اصدقائه كان من بينهم الاستاذ احمد حسن الزيات فعدوه مثالا جيدا للتأليف التاريخي ، ولكن العبادي تردد في نشره ، وحدثني الاستاذ الزيات انه استحثه على طبعه استحثاثا ملحا فلم يستجب ، ووأد كتابه العزيز وادا ، لانه لم يبلغ المستوى المثالي الذي يريد !!

فهذا مؤرخ جامعي عميد حاضر بالكليات العالية اكثر من أربعين عاما في دقائق التاريخ الاسلامي ، ورأى من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه من يملئون المكتبة التاريخية بأبحاثهم ! ثم آثر مع هذه الاستاذية الجديرة بالنفع التريث في نشر مؤلف ضخم عالجه في تمكن وخطه في حيطة ، ودرس مواده في صبر تمده خبرات السنين الطوال .. ومضى الى ربه دون ان يرى كتابه الضياء ! ولو أقدم على طبعه لتتالت طبعاته وكان احد المراجع الهامة بالجامعات العربية ، ولجنى من ورائه جهارة الصيت ووفرة الثراء !

هذا مثل نذكره في التحرج العلمي ، وتقدير التبعة القاسية للتأليف ، وليس العبادي فريدا في ذلك بل ان الصفوة من الاصلاء المعرقين يشاركونه تقدير التبعة وشدة التحرج ، فلا يخرجون الا ما وثقوا بكماله وثوقا لا يتطرق اليه فتيل من الشك عالمين ان من ألف فقد استهدف ، ولست ادعو الى الامتناع عن مواصلة التأليف كما قد يقع في بعض الافهام ولكني ادعو الى التمكن والرسوخ ثم الحيطة والحذر قبل المباهاة بغزارة الانتاج وتنوع التأليف!

وربما سألت ؟ كيف يكون الكاتب خواء الذهن ناضب القريحة ، قليل الاطلاع ، ركيك الاسلوب ضرير الاستنباط ثم يصدر مؤلفاته تباعا كما يتقاطر الغيث الهتون ! ولك الحق ان تسأل ؟ وواجبي ان اجيب في صراحة واضحة فاضحة فأقول : ان هذا النفر من الادعياء، لا يستطيع ان ينهض بموضوع جديد على الاطلاق ، فهو حين تستولي عليه حمى التأليف ملهبة احاسيسه بسياط لا تهدأ ، انما يتجه الى الفهارس العامة ، فاذا كان ممن يدعون المشاركة في الدراسات الادبية مثلا فانه يستنجد بالفهارس المكتبية ليقع على موضوع كثر القول فيه وتعددت المؤلفات عنه فهنا مجال اصطياده ، وموضوع حديثه ، ولنفرض انه اختار الجاحظ مثلا ثم نتصور ماذا يصنع ؟ انه يمد يده الى اول كتاب يجده عن صاحبه ، وليكن كتاب الاستاذ حسن السندوبي وهو اول معاصر تحدث عن الجاحظ في كتاب خاص فيما نعلم فيتصفحه الكاتب ويقف امام صحيفة المراجع التي دونها السندوبي واشار اليها فيلم بها ويستعير ما امكن استعارته من كتبها في دور الكتب ثم يقرأ في الفهارس ان زيدا وعمرا وبكرا وخالدا مما لا نرى داعيا لتسطير اسمائهم قد اصدروا مؤلفات حديثة عن الجاحظ ، فيخف لطيته ويجمع كل ما يستطيع ان يجمعه ، وفي كل كتاب كتبه هؤلاء عن الجاحظ سجل من المراجع يرشد صاحبنا الى الجديد حتى اذا استكمل استيعاب ما عثر عليه من المكتبة الجاحظية ، قرأ ما قرأ في عجلة لوضع الفهرس التقليدي للكتاب على نحو مدرسي لا يكاد يخرج عن الحديث عن عصر الجاحظ ونشأته وبيئته وعمن اتصل بهم من الخلفاء والرؤساء وعن مذهبه الكلامي ومؤلفاته واسلوبه ! ثم يملأ كل موضوع بما تناثر في الكتب المعاصرة وحدها محاولا خديعة القارىء اذ يوهمه اطلاعه على بعض المصادر القديمة بترداد اسمائها ، وهو في واقع امره ناقل ردىء عن ناقل مجيد!! فقل لي بربك الا يستطيع دعي من هذا الطراز ان يكتب

## شجرة الحور

ربيبة المـاء عبي كوثـر المـاء
فمن كؤوسك يـا حوراء صهبائـي
بنت النعيم الـذي أولاك بردتـه
بيضاء ترفـل فـي وشي ولألاء
ميسي بقامتك الهيفـاء سامقـة
وعانقي الشمس فـي صبح وامساء
فانت اول مـن يشتار مبسمهـا
والنحل لمـا تفق من حلـم عذراء
فمـا أحبك والاطيار هارجـة
علـى غصونـك فـي دل واغـراء
والبدر فيض من الاشعاع منهمـر
وقـد تناثر فـي طـل وانـداء
أشهـى ثمـارك اعشاش مكورة
كانهـا حلـق فـي جيـد حسنـاء

وديع ديب

مائتي صفحة عن مثل الجاحظ ! والمراجع معدة ، والتبويب مريح ، والابتكار فقيد ، والسطو واضح ، ومن وراء ذلك طبع فاخر ، وورق لامع ، ومقدمة يستجديها من كاتب جهير لسبب لا ندريه .

هذه هي طريقة التأليف النشيطة كما يعرفها هؤلاء ، وقد يتطاول احدهم فلا يكتفي بالتأليف في مجال قراءاته ومراجعاته بل يقفز الى مجال آخر بمنأى عن حقله المعهود ، وانا اعرف كاتبا ما ادعى الكتابة الادبية على طريقتـه المعروفة ، فاخذ يصدر كتبه المتوالية عما يزعمه مـن قضايا الشعر والنثر ثم شاء ان يقفز فجاة الى تفسيـر القرآن الكريم فجعل يصدر الجزء وراء الجزء ، وفـي المكتبة القرآنية مئات التفاسير ما بين قديمة وحديثة ، ولا بد لمن يشرئب الى كتابة تفسير جديد ، ان يفتح الله عليه بما ابرزه الزمن المعاصر من فهم جديد لبعض قضايا الفقه والتشريع والاخلاق كما تحدث عنها القرآن الكريم ، لتظهر عظمة كتاب خالد يفيض على الاجيال المتعاقبة مـن نوره كل صباح ما تفيضه الشمس على الغياهب كل يوم ! فبماذا فتح الله على هذا العلامة الجديد ! لقد قرات الجزء الاول من تفسيره ، وانا اعلم سلفا انه نقول مسطرة عن السابقين ! وكنت اتصور انه قـرا امثال الطبـري والنيسابوري والزمخشري والفخر الرازي .. الى امثـال رشيد رضا وطنطاوي جوهري وفريد وجدي ثم تابـع التلخيص ، ولكن الكارثة حارة اذ اقتصر صاحبنا علـى تفسير الالوسي وحده المسمى بروح المعاني ، واخذ يعالج النقل المبتور بتصرف يضر اكثر مما يفيد ! واذا كنا نعلم ان الالوسي رحمه الله قد قدم في تفسيره الكبير خلاصة لاكثر اقوال السابقين مشفوعة برأيه فان صاحبنا زعـم في مقدمته انه قرا أقوال السابقين ايضا وقدم خلاصة لها ! ليخدع السذج بأنه عانـى معاناة الصابر الدءوب ! ولكن المقارنة بين تفسيره وتفسير الالوسي تجعلنا نتساءل عن الامانة العلمية اين تكـون ، اذا لم تكـن ـلدى مفسر القرآن الكريم !

ولنا ان نقف قليلا عند من يشجع هؤلاء على الكثرة الكاثرة من الاجهاض الكتابي الشائه ، فنعلم انه الناشر ! والناشر وحده هو الذي يفتن في التوزيع والنشر افتتانا صار به تاجرا كبيرا ذا ثراء وجاه ! حين مـد اخطبوطه المحكم الى جهات كثيرة ، فهو يتقدم بخدماته الى لجان فحص الكتب في وزارة التربية والتعليم ليعلن استعداده لطبع مؤلفات ذوي الكلمة المسموعة من حضراتهم مقدما من الاجر ما يقنع ! ثم يلقى اليهم قوائم فهارسه لتكـون موضع عطفهم ، وقد اسرهم بمعروفه ، فيسارعون الـى اختيار كميات وافرة من مطبوعاته تخزن خزنا في مكاتب المدارس الثانويـة والاعداديـة والتجارية والصناعية والزراعية ودور المعلمين والمعلمات بشتـى محافظـات الجمهورية ، ثم لا يقتصر على ذلك بـل يلقي حباله الـى اساتذة الجامعات في شتى الكليات المختلفة ، مرحبـا بطبع محاضراتهم لقاء أجر مقنع ثم ملتمسا النظر الى قائمة مطبوعاته فيما يختارونه لمكتبات الكليات بالجامعة ، فيرى التشجيع والاقبال ، ولا ينسى ان يوثق علاقاته بالقائمين على توزيع الصحف اليومية والمجلات ، فيضع كتبـه الجديدة في ورق السلوفان الموصد ، ويقوم بائعو الجرائد في كل مكان بعرضها مع الصحف اليومية ، وكثير مـن قراء هذه الصحف يسألون البائع عما لديـه ليختاروه بمظهره لا بمخبره ، اذ ليسوا ممن يقرءون للاستفادة بل ممن يتباهون بالشراء ، وتجميل المنزل بالحديث مـن المؤلفات ! فالكتاب لدى هؤلاء لا يزيد عن قدح او طبق او كرسي يجد مكانه المعد فـي المنزل وان لم يحـن ميعاد استعماله واذا كنت تعرف ان كل شارع لا يخلو من بائـع صحف ! فانك تعرف ان اتساع منافذ العرض علـى هذا النحو مما يحتم ان يتصيد الكتاب مئات الاغرار ممـن يعتزون بالورق المطبوع دون ارتقاء الى ما سواه ! وبذلك يرجع الناشر بخيره الجزيل فيلقي ببعضه الـى صاحبه الذي تهيأ في نشوة التوزيع الى اصدار كتاب جديد .

هذه خواطر متناثرة أسودها كما توالت على النفس حين حملت القلم للكتابة ! وقد وقفت في هذه الجلسة القصيرة لدى هذا الحد المقتضب حين كل الذهن ومـا اكثر ما يدركه الكلال ، وانا اعلم جيدا أن الموضوع لم ينته بعد ، فلـه معقبات وذيول ، ولا بـد من العودة اليه في مقال آخر اذا أتيح الصفاء !

الفيوم ـ دار المعلمات

محمد رجب البيومي

# توديع لرئيف خوري

* * *

رئيف أيا زين النهى والفضائل ... نفديك لو نستطيع رد الغوائل
أأذكر اذ ضمت بلودان عهدنا ... ومؤتمر الاداب عز الموائل
فكنت على الشام العروبة والحجى ... هدية لبنان الحبيب المواصل
أسافرت والدنيا مطية راكب ... فآثرت بايجاز الطريق لراحل
وبالامس وافينا اللقاء بندوة ... تدافع فيها الخصم دفع المقاتل
ولا خصم في الاداب والفكر انما ... تلاقي بهذا الحب عذل العواذل
أيكفيك دمع الحزن منا واننا ... لنبكي نبوغ العبقري المناضل
لقد عشت من خبز اليراع وبؤسنا ... تصوغ له الاقدار سوء الشمائل
وما مكسب الاقلام الا زهادة ... لظمآن يروى بالسراب المخاتل
فيا كاتبا ما كان الا تعلة ... بدهر أبى التخليد الا لكامل
أرب البيان العذب ، ودعت قبلما ... أراك وما وجدي عليك بزائل
أهذي خواتيم الاديب وطالما ... تهادت له الاحلام في ثوب آمل
وأسأل نفسي ما الحياة وما الفنا ... فألقى الصدى قد عاد في لفظ سائل
تأوب حزني والليالي ملحة ... بآلامنا والحرب ماجت بصائل
اذا القمر ازدان الدجى بضيائه ... سألنا وهل يخفى لديك بماثل
نعم يا شقيق الفكر ، يخفى كما بدا ... محياك خلف الغيب في بين عاجل
ستأنس في أوج النعم بشاعر ... وذي أدب او فيلسوف مساجل
لعل هناك العقل اوعى لفكرة ... تخالط قلبا باليقين المغازل
فيا سيرة الآداب في حلو شربة ... تظل على لبنان نبعة ناهل
ويا زهرة نفح العباقر طيبها ... لقد كان فيها الغصن زهو الخمائل
ويا نغمة ريا الحنان بعازف ... أمن بعدها يصفو هديل العنادل
عليك سلام الله في ذروة الدنى ... بذكرى توافي بالضحى والاصائل

دمشق ... زكي المحاسني

# وديع عقل احد الخالدين في لبنان

بقلم محمد جميل بيهم

* * *

في مطلع هذا القرن تأهبت مدينة بيروت ، وقد كانت في العهد العثماني قاعدة ولاية تحمل اسمها بالاشتراك مع متصرفية لبنان الممتازة، لان تدعى بحق درة تاج آل عثمان. ذلك لان تطورها التجاري والثقافي المطرد بالاضافة الى تجددها باقتباس التمدن الحديث سمحا للامبراطور غليوم الثاني بأن يطلق عليها هذا الوصف عندما زارها مع زوجته في آخر القرن الفائت .

ففي تلك الحقبة من الزمن بدأ ازدهار بيروت ولبنان عمرانيا ومدنيا ، واتسع نطاق تجارتها اتساع مدى انتشار العلم والادب فيها . وظهرت فيها وفي جبال لبنان نخبة من سكانها كانوا بمثابة الرعيل الثاني للبعث الثقافي العربي الجديد على انهم كانوا يمتازون على الرعيل الاول بالتجديد وبالمسحة الغربية التي اصبحت بارزة في ادبهم .

وكان بين هؤلاء الرواد المرحوم وديع عقل الذي لم يكن اديبا وشاعرا فحسب ، وانما كان صحافيا وسياسيا في نفس الوقت . وفضلا عن انه انتخب مرتين نقيبا للصحافة فقد رئس المجمع العلمي اللبناني ، وانتخب سنة ١٩٣٤ نائبا عن جبل لبنان وتكريما لذكراه اقامت نخبة من عارفي فضله حفلة في قاعة محاضرات وزارة التربية ببيروت وذلك في ٢٩ اكتوبر ١٩٦٧ دعي للكلام فيها الاساتذة جورج ابو سعدى عن اللجنة ، ورياض طه عن الصحافة ، والشيخ عبد الله العلايلي والشاعر بولس سلامه ، ووسيم تقي الدين ، والشاعر فوزي سابا ، والشاعر اسعد سابا ، والمؤرخ محمد جميل بيهم ، وفاضل سعيد عقل عن آل المحتفى به .

وقد اتيح للاستاذ بيهم الذي خلف الفقيد على رياسة المجمع العلمي اللبناني عام ١٩٣٠ ان يصوره بريشة عارف خبير لانه عاصره ورافقه في ذلك المجمع رئيسا ومرئوسا .

في صدر هذا القرن كان وديع عقل في عداد الذين ادركوا ذروة الشهرة من اللبنانيين . بيد ان الشهرة ليست في الواقع صالحة لان تكون المقياس لتقدير قيم الناس . ورب امرىء احرزها كاملة ، وهو لا يستحقها ، وآخر حالت الظروف دون ادراك حقه فيها ، وهو اجدر بها من سواه . واما الذي يقدر القيم على حقيقتها فهي المعاملة التي جاء في الحديث عنها : « الدين المعاملة » .

وبالمعاملة يبدو الناس على فريقين : فريق اذا تعرفت اليهم رايتهم يملأون القلب والعين احتراما ، ولكنك اذا ما خالطتهم ، وسبرت غور نفوسهم لم تلبث ان تشعر بانكماش ظل احترامك لهم تدريجيا حتى لا يبقى له اثر ، وفريق آخر يزداد اعجابك بهم كلما ازددت اختبارا لهم .

ولقد اتيحت لي الفرصة للتعارف الى صاحب « الراصد » تعارفا كاملا ، وذلك ابان ما كان رئيسا للمجمع العلمي اللبناني ، ثم في غضون ما كان هو والشيخ ابراهيم المنذر معاونين للرئاسة منذ ١٨ تشرين الاول ( اكتوبر ) سنة ١٩٢٩ . وفي المدتين ادركت ان هذا الاديب الكبير كان من اولئك الافذاذ الذين كلما طال امد تعاملك معهم تضاعف احترامك لاخلاقهم ، وتقديرك لمواهبهم .

كنت قبل هذه المصاحبة اكن للوديع العاقل جزيل الاحترام على اعتبار انه شاعر مجيد ، وكاتب قدير ، ولكني ما ان تعاونت معه في المجمع العلمي حتى ادركت ان سر شهرته لم يكن لمجرد ادبه ، وان انتخابه رئيسا لتلك المؤسسة التي كانت تمثل وجه لبنان الثقافي لم يكن لعلمه وفضله فحسب وانما تعود لكفاءات اخرى كان يتحلى بها . بل ادركت ايضا ان هذا الرئيس الشاعر الناثر رب المحابر والمنابر كان من الذين يزدادون في عينك اجلالا كلما ازددت بهم اختلاطا .

كان المرحوم لا يبالي بالمظاهر بقدر ما كان يتعصب للقيم الروحية . فاذا رايته في بساطة زيه ، ووداعة اخلاقه ، وتواضع نفسه ، وذلك على غير تعارف سابق ، وقيل لك ان محدثك هو محرر الوطن ، وصاحب الراصد وهو ناظم تلك الروائع الشعرية ، وكاتب تلك البدائع النثرية تكاد لا تصدق الخبر وذلك بأنه كان على الرغم من دعوته الى التطور والتجدد ، ومن مناداته الى التحفز والتقدم كان شديد الحرص على المستحسن من التقاليد القومية ، وبساطة الطابع اللبناني الاصيلة ، شأنه في ذلك شأن ثلة من مشاهير معاصريه . منهم داوود بركات محرر جريدة الاهرام التي كانت عميدة الصحف العربية ، والشيخ يوسف الخازن النائب اللبناني الجريء . ورشيد نخله ناظم النشيد اللبناني . وهو في ذلك كان عصريا متطورا ، ولكنه كان في نفس الوقت لبنانيا محافظا يتحلى بالمناقب التي هي من مفاخر لبنان وسائر بلاد العرب .

واني سأترك لسواي من الخطباء الكرام التحدث عن ادبه وفضله لاتناول ناحية اخرى من سيرته اتيح لي ان ادركها بنفسي خلال مصاحبتي له . واعني بها رجحان عقله على عواطفه ، واعتدال مسلكه واتزانه في حياته الاجتماعية .

كان وديع عقل لبنانيا متعصبا لوطنه يدافع عنه

بقلمه وبروحه غير ان تعصبه للبنان كان مشفوعا بحبه للعروبة . فكان يفاخر بها ايضا ، ويباهي بلغتها ، ولا بدع فهي لغته ولغة آبائه واجداده . وكم له من حملات على المتبرئين منها في غضون تلك المحاولات الاجنبية التي كانت ترمي الى عزله لبنان عن العالم العربي ، وكم له من هجمات على الذين تعرضوا لها في المجلس النيابي .

ولما انتخب رئيسا للمجمع العلمي اللبناني أتيح له ان يقرن القول بالعمل : فكان الرائد الاول في الدعوة الى تعاون الامصار العربية الشقيقة ، ولا سيما في الناحية الثقافية . وقد عهد الي المجمع بناء على اقتراحه زيارة القاهرة لهذه الغاية ابان ما كانت مصر في عهد الحماية منطوية على نفسها . فكان تجاوبها مع هذه الدعوة الذي يرجع الفضل فيه لاحمد زكي باشا شيخ العروبة ، بمثابة الخطوة الاولى في سبيل التعاون العربي الحديث يوم كانت البلاد العربية يباعد بينها الاستعمار على الرغم من اجماعها على تمني الوحدة .

ثم لما انفت الحكومة اللبنانية مجمعها العلمي بحجة الاقتصاد ، وهي انما الفته مسايرة للانتداب من جراء هذا التعاون هب وديع عقل هبيب النمر ، واعرب عن المه من هذا التجني بمقال ناري صدر في جريدته الراصد يوم ٢٤ تشرين الاول ( اكتوبر ) سنة ١٩٣٠ . وكان عنوانه : « من كان عدوا للعربية ، فهو عدو العرب وعدو لبنان » .

وهذه كانت غضبة غسانية بريئة لا شائبة فيها لان وديع عل لم يكن وقتئذ رئيسا للمجمع العلمي اللبناني حتى يتهم بأن ثورته على حكومته كانت تعود الى حرمانه من ذاك المنصب الرفيع .

والى هذا كان وديع عقل من اللبنانيين المحبين لفرنسا الموالين لانتدابها ، وكان كثيرا ما ينوه بها ويدافع عنها الا انه في حبه لحامية الكثلكة في الشرق لم ينس وطنه . فكان لا يتوانى في الدفاع عن كرامة اللبنانيين وحقوقهم ، وعن التنديد بعمل الانتداب خاصة ، وعن التعريض بالاستعمار على وجه عام .

وكان كذلك من خصوم الدعوة الى الوحدة السورية تلك الدعوة التي ظهرت بقوة في اعقاب ممارسة فرنسا لانتدابها على سوريا ولبنان . ولكن معارضته للوحدة لم تكن مجاراة للسلطة ولا ممالأة لها وانما كانت قائمة على اقتناع مداره ان يترك للزمن الفرصة الكافية حتى يجعل هذه الوحدة تفرض نفسها فرضا نتيجة للمصلحة العامة .

هكذا كان صاحب الراصد في حياته الخاصة والعامة متزنا في سلوكه ، مستقلا برأيه لا تتحكم في عقله العواطف ، ولا يقوى التيار مهما كان جارفا ان يحيد به عن سنة الاعتدال . على اننا لا نكون قد وفيناه حقه من التعريف اذا لم نلق نظرة على جريدته التي كانت تنطق بلسانه ، وتعبر عن خلجات قلبه .

كانت « الراصد » جريدة سياسية ،وللسياسة فيها مقام الصدارة ، ولكنها كانت مع ذلك كمجلة ادبية يلقى فيها اهل الادب ، وطلاب المدارس ضالتهم المنشودة . ذلك بان صاحبها وان القى نفسه في احضان السياسة الا ان نزعته الادبية ظلت بارزة اكثر من اي نزعة اخرى .

وهنا لابد لي من الاشارة الى ان جريدة الراصد كانت ايضا صحيفة نسائية : ففي ذلك الحديث اليومي الرفيق الذي كان عنوانه « بنات حواء » كان المحرر ينتقل من زهرة الى زهرة : من الحب الى الجمال ، ومن الفكاهة الى اخبار الحسان داعيا الى تحرير المرأة ، والى تعليم البنات فيصوغ من تلك الازاهير الناضرة شهدا شهيا فيه شفاء للناس يقبلون عليه دون الخوف من ابر التقاليد البالية . فكان وديع عقل بذلك من انصار المرأة الذين دعوا الى سبيل تحريرها بالحكمة والموعظة الحسنة فكانت دعوتهم مستجابة .

وفي ذلك العهد ، عهد الشباب ، وليته يعود يوما ، كانت نسيبة لي قد رغبت الي بان ازودها بالكتب والمجلات الجديرة بالقراءة . فكنت لا اتلو جريدة الراصد الا واجد فيها من النسائيات الجذابة ، والفوائد المختارة ما هو جدير بأن يقطع ويضم الى باقة الفرائد التي كنت اهديها الى هذه الصبية المجتهدة .

وبعد فاني اذ اترحم على هذا الصديق الكبير الذي مثل لبنان احسن تمثيل في صدر هذا القرن ، وساهم في بنيان مجده اوجه الشكر الجزيل الى عارفي فضله الذين شاؤوا ان يحيوا ذكراه بهذه الحفلة . واشكرهم ايضا على دعوتي للمساهمة في هذا الواجب . فهم جديرون بالشكر ، ولا يعرف الفضل الا ذووه .

**محمد جميل بيهم**

## صفحة عمري

**قالوا : كبرت .. وهذا الشيب يضطرم — في ذروة الرأس .. والايام تنتقم**
**فقلت : لا غرو اما الدهر كللني — وما ترون بياضا انه قمم**
**صنين لولا ثلوج الكبر تحرسه — ما كان زهوا لنور الشمس يبتسم**
**بياض قلبي على فودي منتشر — وتلك « صفحة عمري » .. كلها شمم**

**حمص** — **عبدو مسوح**

« اصوات من الخارج : طب ! طب ! طب ! — القنابل ! القنابل — احمد! استيقظ يا ولدي ! قنابل ! قنابل ! قم ! هيا — اليهود ! اليهود ! الى اين نذهب ؟ — هووو ! أخ ! راسي! رأسي ! لقد هدمت الدار . هدمت القنابل الدار . — نجية ! اين سمير؟ احضري الولد وتعالي الي . — ابا حمدان ! انظر ! ان الناس يخرجون من الدور الى الشوارع . انظر ! الى اين هم ذاهبون ؟ — طب ! طب ! — لقد سقطت قنبلة على دار ابي سليم العبد الله . يا لله ! لقد هدمت القنابل السقف . الا ترى ؟ — ام رجب ! — نعم . — ماذا تفعلين ؟ — انني احزم الملابس والامتعة . — أسرعي ! اسرعي ! يجب ان نخرج من الدار على عجل والا هلكنا . ان مدافع العدو تقصف البلد . — طب ! طب ! طب ! — محمود ! — ماذا تريد ؟ — هل رأيت خطيبتي سعاد ؟ — كلا . — لقد بحثت عنها في دار عمي ولكنني لم اجدها ولم اجد احدا من ابناء عمي . — ربما خرجوا من طولكرم . — اتركي الامتعة الثقيلة . من يستطيع ان يحمل كل هذه الامتعة ؟ احزمي الامتعة الخفيفة فقط . الحرامات وقليل من الملابس الداخلية تكفي . هيا أسرعي ! — وابوك من يحمله ؟ انه شيخ ضرير . سأتعاون انا واخي على حمله حتى نجد في طريقنا سيارة تقلنا الى عمان . طب — يا وردي ! يا وردي ! — ما هذا ؟ صراخ . — لا بد ان تكون احدى القنابل قد قتلت بعض السكان . — طك ! طك ! — صوت رصاص بنادق ان اليهود يفتكون بالاهالي . لقد انتشروا في البلد . هاتي الامتعة . الحقيني انت والاولاد . هيا ! سنتناول الفطور فيما بعد ، في الطريق . — امك مريضة وهي عجوز لا تستطيع السير على قدميها — سأحملها . — خذي معك قوارير ممتلئة بالماء . كل شيء ما عدا الماء . — يقال ان الجنود الاسرائيليين ينذرون الاهالي بالقتل ان لم يخرجوا من المدينة . — ضعي النقود في لحاف الطفل لئلا ينتزعها اليهود منا — والحلي الذهبية ؟ اين نخفيها؟ — ضعيها تحت قبعة الطفل . ان اليهود لا يفتشون ملابس الاطفال . — يا فتاح يا عليم ! اين كان هذا الهم مخبوءا لنا ؟ — ليس هذا الوقت وقت تأسف وتحسر . هناك وقت اخر للانتقام . ان الحياة ليست نعيما كلها ولا شقاء كلها . اننا راحلون الان ولكن لا بد من العودة الى طولكرم » .

( اصوات من الداخل : ها انا احمل كيس امتعتي على ظهري وما حملت في حياتي قط كيسا مثله ومشيت به في شوارع طولكرم كما




بقلم عبد الحميد الانشاصي

يمشي العتال الفقير . اتريدون ان تذلوني ايها اللئام ؟ لا ، ان هذا لاينال من عزة نفسي ولا يثبط عزيمتي . سأقاومكم الان بصبري وغدا بسلاحي — يعز علي كثيرا يا بلدي الحبيب ان اتركك للاعداء . لقد قضيت في ربوعك اجمل ايام حياتي كلها : طفولتي وصباي وشبابي وشيخوختي لا بد من العودة اليك يا طولكرم . ان ما تركته فيك من مواطن الذكرى هو المغناطيس الذي يجذبني اليك . — سيروا يا اولادي . لا تفكروا في ،




انني استطيع السير معكم جنبا الى جنب . انني وان كنت ضعيفة الساقين محدودبة الظهر ما زلت قوية الامل في الحياة . — أأترك اراضي المشجرة ودوري العامرة في مسقط رأسي واهيم على وجهي في بلاد الغربة ؟ ان هذا ليمزق الفؤاد .

— ايستولي الاعداء على حانوتي العامر بجميع الوان البضائع التي بذلت مالي وقدمت عصارة ذهني ثمنا لها ؟ — كيف اتخلى عن اثاث منزلي الثمين لقوم ليسوا اهلا لان يحتفظوا بقطعة واحدة منه ؟ لقد قضيت عمري وانا اجمع النقود لاتزوج واملأ منزلي بالاثاث الفاخر. وقد استأجرت منزلا فخما وجلبت اليه افضل انواع الاثاث ، وقدمت الى عروسي حليا نفيسة وملابس انيقة ، وكان في النية ان اتزوج بعد اسبوع . وهكذا ذهبت اتعابي ادراج الرياح . — ان لي على ابي سليمان اليوسف ثلاثمائة دينار ، وقد وعدني بدفع مئة دينار من هذا المبلغ غدا . يا لله ما اعجب الاقدار ! — ومالي الذي في البنك ؟ ان لي في البنك الفي دينار . يا ضياع مالي وتعبي ! — بيارتي الواسعة بأشجار برتقالها الخضر واثمارها اليانعة . أأتركها لقمة سائغة للاعداء ؟ — يا قوم ! الى اين انتم هاربون ؟ قفوا ! عودوا الى بلدكم . ان كنتم ذاهبين الى الطمأنينة والسعادة والهناء فلا تبحثوا عنها في غير بلدكم طولكرم فهي موجودة هنا . هاجموا الاعداء وانتزعوا منهم اسلحتهم وقاوموهم بها لكي تحتفظوا بطمأنينتكم وسعادتكم وهنائكم التي خلفتموها وراءكم ) .

هرع الاهالي من طولكرم في تدفق وذهول وارتباك رجالا ونساء واطفالا هذا يحمل على ظهره كيس امتعة ، وتلك تحمل على ساعدها طفلا . كانوا كلهم متجهين الى الشرق حيث ارتفعت الشمس عن الافق قليلا وهي تحدق بأشعتها الحارة . وكان كثيرون منهم في ملابس النوم اذ لم

يجدوا وقتا كافيا لارتداء ملابسهم الخارجية . لقد قضوا الليلة الماضية في راحة وهناء اذ لم يخطر فيبالهم ان صباح اليوم التالي يحمل لهم من الحوادث والانباء ما يتعارض مع اماني نفوسهم واحوالهم . وكانوا من حين الى آخر يلتفتون وراءهم لا ليودعوا مدينتهم الحبيبة بل ليتأكدوا من ان القنابل التي كانت تطلقها مدافع الاعداء لم تقترب منهم فقد شغلهم الارتباك عن كل شيء ما عدا التفكير فيالسلامة . كان الواحد منهم يسير ذاهلا حتى عن صديقه او جار له يسير بجانبه من حيث لا يدري ما عدا رجلا واحدا التفت الى يساره متنهدا اذ علق نظره ببيارته الكبيرة .

خرجتالجموع العربية من شرق المدينة ، ودخلت الجموع اليهودية من غربها . اخذ جنود الاعداء يعيثون في المدينة فسادا . اطلقوا النار على اقفال ابواب الحوانيت ثم اقتحموها ناهبين مختلسين . ولم يكتفوا بذلك بل انتزعوا النقود والحلى من الاهلين وهم يخرجون من المدينة نازحين . ولم يستطع الاهلون ان يفعلوا شيئا فقد كانوا عزلا من الاسلحة والاصدقاء الاقوياء والمغيثين الاشداء وذوي الانسانية والعدالة .

وكان بين تلك الجموع الغفيرة رجل اسمه امين وهو شاب صلب العضلات ناري النظرات مديد القامة مندفع الصدر . وكانت تسير الى جانب هذا الرجل اسرة مؤلفة من استاذ كان يعلم في مدرسة ثانوية في المدينة واسمه يحيى ومن زوجته وولد في السابعة عشرة من عمره وبنت في العاشرة من عمرها . وعلى مقربة من هؤلاء رجل اسمه شفيق وامراة صبية حبلى كان قد تزوج بها منذ بضعة اشهر . ولم يخوضوا موضوعا من مواضيع الاحاديث اثناء سيرهم ما عدا عبارات التأسف والتحسر التي كانوا ينفسون بها عن قلوبهم المعذبة من حين الى اخر . غير ان يحيى وهو رجل فكري بحكم وظيفته كان مستغرقا في تفكير عميق . وكثيرا ما هم بالنطق بما يدور في ذهنه من افكار غير ان المصيبة كانت تعاجل لسانه بنخسة في قلبه فيمتنع عن النطق ، واخيرا وضع حدا لسكوته اذ التفت الى امين قائلا :

— الى اين تريد ان تذهب يا امين ؟

فأطلق امين من عينيه الواسعتين اللامعتين نظرة طويلة شاردة ثم اجاب بعد قليل من التفكير :

— وجهتي نابلس .

فأجال الاستاذ نظره في محدثه وقال :

— نابلس ! ولكن الاعداء لا بد ان يزحفوا الى تلك المدينة يا رفيقي .

( اخشى ان ترغم على الرحيل كما رحلت عن طولكرم ) .

فقال امين بلا مبالاة :

— وان يكن ؟

وبعد هنيهة التفت امين الى يحيى قائلا : — وانت ؟ ما وجهتك ؟

— عمان ، ان لي اقرباء هناك ( يجب ان اكون بمنأى عن الاعداء لكي اتمكن من الدفاع عن وطني ولو بقلمي ) .

ثم التفت الى شفيق قائلا :

— وانت يا شفيق ما وجهتك ؟

— انني متجه الى اربد حيث تقيم اسرة زوجتي .

( لو لم تكن اسرة زوجتي هناك لاضطررت ان اقيم في خيمة بأحد المخيمات ) .

وفي طريقهم مروا بأسرة مؤلفة من شيخ وعجوز مريضة كانت مستلقية على العشب ومن شاب وثلاثة اولاد كانوا جالسين على الارض . وكان الشيخ والشاب يتناولان فطورهما ماضغين الطعام بأسنانهما والهموم بعقليهما وقلبيهما .

وبعدبرهة مروا برجل اعمى يقوده حفيده وهو في الحادية عشرة من عمره . وكان الشيخ يتلو ايات من القرآن بصوت ذليل ليفرج الله عنه كربه ويهديه الصراط المستقيم ، بينما كان حفيده يصغي اليه في خوف وتأمل واحترام .

وقد اقبلوا على رجل مرتد ثوبا ابيض وعلى رأسه عمامة خضراء امتد طرفها على عنقه ، وقد طوق عنقه بسبحة كبيرة ذات خرزات ضخمة. اما ثوبه فقد كان فضفاضا شبيها بخيمة انتزعت اوتادها وارتخت اسبابها . وكان يسوق امامه حمارا يحمل قربة ممتلئة بالماء . وكان يطوف بالمارة من اللاجئين وهو يقدم اباريق من الماء ليسقي العطاش ولا سيما الاطفال والغلمان . وكانت الاصوات ترتفع من كل ناحية : « يا شيخ مسعود ! ماء يا شيخ مسعود » وكان الرجل يخدم ابناء بلده في رضا وغبطة عجيبين ، وقد قنع بالدعوات الحارة التي تنبعث من افواه العطاش جزاء له على عمله الطيب .

ولما وصل النازحون الى بلدة عنبتا تجمهر اهلوها من حولهم يسألونهم ماذا حدث لطولكرم وهل بقي فيها احد . وقد استعمرت وجوههم امارات الخوف والذعر اذ خشي الاهالي ان يكون مصيرهم شبيها بمصير مدينةطولكرم . وكانتالهزات الحزينة التي تصدر عن رؤوسهم الجامدة اثناء الاستماع الى حديث النازحين دليلا على ذلك .

وواصل النازحون سيرهم مخلفين في بلدة عنبتا الجياع والمرضى ومن تعبت ارجلهم وتألمت اقدامهم . ولم يكد نصف ساعة يمضي على خروجهم من بلدة عنبتا حتى بدأ التعب يتمشى في ارجلهم وظهورهم والملل في نفوسهم والسخط في افواههم .

وبينما كان يحيى وصحبه يتحدثون اثناء سيرهم اذ مرت بهم سيارة . فلما وقع نظر امين عليها قال للاستاذ :

— هذا درويش حسنين السائق. لقد رحل عن طولكرم هو وآسرته في

سيارته .

وقال شفيق : ـ هنيئا له ! ليت لي سيارة كسيارته . اذن لركبنا جميعا فيها . لقد كنت شريكا لاخي في سيارة اجرة غير انني بعتهـا اخيرا لكثرة النفقات التي اقتضاها ما كان يصيبها من تلف .

( ليتني لم ابع سيارتي . انها في مثل هذه الساعة خيرمن الاموال كلها ) .

وقال يحيى : ـ ان من حسن حظ ذلك السائق ان يفر بسيارته من وجوه الاعداء وينجو من شرهم ، فان سيارات الاجرة والسيارات الخاصة يأخذها الاعداء منا ويحتفظون بها سلابا .

( كان في امكاني حينما كنت في طولكرم ان اطلب من صديقي حامد ايوب ان يقلني معه في سيارته الخاصة ، ولكنني ابيت ان اعرض عليه ذلك اذ ربما كان في النية ان يركب معه اشخاص من اقربائه ) .

وانهم لكذلك اذ سمعوا دويا هائلا حشا القبة الزرقاء بالازعاج وانزل صواعق من الرعب على الارض . فأصغى النازحون بآذانهم وعقولهم وقلوبهم وجوارحهم ، وشعروا ان سوء حظهم ما يزال يلاحقهم . نظروا الى السماء باحثين بعيونهم التعبة عن الطائرات التي بعثت ذلك الدوي الهائل . وارتفعت الاصوات : طائرات ! طائرات يهودية !

وتفرق النازحون هاربين الى نواح مختلفة . اختبأ بعضهم تحت اشجار الزيتون ، واعتصم بعضهم ببطون الصخور . وبعد قليل سمع دوي قنابل تردد صداه في الاودية والقلوب .

ظل اللاجئون في مخابئهم حتى ابتعد دوي الطائرات عنهم فأيقنوا انهم اصبحوا بمأمن من شر الاعداء ، فعادوا الى الطريق وواصلوا المسير وراحوا يتحدثون عن تلك الطائرات وعما القته من قنابل . وقد تبين لهم ان احدا منهم لم يصب بأذى ، وخطر في بالهم ان قوات الجيش الاردني والعراقي هي التي كانت هدفا لقنابل الاعداء .

وبينما كان يحيى وصحبه يسيرون اذ صاح امين وهو يشير بأصبعه الى سيارة تحترق في الطريق :

ـ انظروا ! انها سيارة تحترق .

( انها سيارة مدنية . اخشى ان تكون سيارة درويش حسنين ) .

وقال يحيى : ـ لاشك ان الاعداء القوا عليها قنابل محرقة . تبا لاولئك المجرمين !

وقال شفيق : ـ اقتربوا من السيارة . دعونا نذهب لنراها .

( ترى هل احترق كل من فيها ) .

اقتربت الجماعة من السيارة على عجل واخذ الجميع يسرحون انظارهم فيها وفي ركابها . وكان امين يحدق في ركابها بعين جامدة كعدسة المصور كأنه اراد ان يلتقط صورة تذكارية لهم ، ثم تراجع متأثرا وصاح :

ـ مجرمون ! لقد احترق جميع من في السيارة . انها سيارة درويش حسنين الذي مر بنا منذ بضع دقائق . انها هي نفسها .

أجل هو درويش حسنين ، يمكنني ان اتبين ملامح وجهه على الرغم من التشويه الذي سببته القنابل المحرقة له .

ثم اخذ يحرق الارم سخطا وغيظا وقد اطبق اصابعه وشد اعصاب يديه فتجمعت عضلاتهما الصلبة .

( اصوات من الداخل : اين السلاح ؟ اعطوني سلاحا . اشعر برغبة في العودة للانتقام من اولئك الغادرين الذين احرقوا هؤلاء العزل . أحرقوا الاطفال والنساء والاولاد . ويل لهم ! )

( منظر في الداخل : يعود الى طولكرم فيخطف مدفعا رشاشا من جندي يهودي ويأخذ في اطلاق النار على الاعداء ) .

ولما رأى شفيق ما حل بركاب السيارة اطلق تنهدة عميقة ، وقال في حزن شديد : ـ لا حول ولا قوة الا بالله !

اما الاستاذ يحيى فقد عجز عن التعبير عما انبعث في قلبه من الثورة والاسى بالكلام فانطلقت نفسه تحدثه في حرية صامتة ، واخذت الاخيلة ترسم في ذهنه صورا ملتهبة :

( اصوات من الداخل : هل من الشجاعة ان تلقى القنابل المحرقة على هذه الاسرة العزلاء ـ على النساء والاطفال ؟ لقد سمحوا لتلك الاسرة بالرحيل عن طولكرم ، فلماذا لحقتها طائراتهم واحرقتها ؟ اين الحق ؟ اين العدل ؟ )

( منظر في الداخل : يقف على منصة ويلقي على جمع من الناس كلمة مؤثرة يصف بها ما شاهده بعد رحيله عن طولكرم ) .

وواصلت الجماعة السير مع بقية اللاجئين . وفي الطريق وقعت انظارهم على احدى سيارات الجيش وقد احترقت بمن فيها بسبب قنبلة محرقة القتها طائرات الاعداء عليها ، ورأوا بجانبها دبابة تالفة مائلة الى الخندق .

وعلى بعد بضعة امتار من الدبابة والسيارة رأى اللاجئون جنديا اردنيا ملقى على الارض ، وقد تمدد بجانبه جندي آخر عراقي . وكان كلاهما قتيلا .

كاد يحيى ينفجر ثورة وسخطا :

( اصوات من الداخل : لماذا هزمنا هذه الهزيمة الفاضحة ؟ لقد كان العرب في فجر الاسلام كتلة من الحماسة والحيوية والشجاعة . خرجوا من الصحراء القاحلة ليضموا بلادا الى بلادهم ، ومات كثيرون منهم شهداء في سبيل الاسلام مؤملين ان يكون جزاؤهم على اخلاصهم في القتال جنات سماوية فيها اطايب المأكولات وفيها الحور والعين . ونحن خرجنامن الفردوس، ونحاول اليوم ان نسترد ارضا فقدناها ـ نسترد جنة حافلة بألوان السعادة والهناء والخصب والفواكه والثراء . ينبغي لنا ان نكافح ونحارب في امل وبسالة من اجل فردوسنا المفقود . نحارب لنسترد

جنتنا فنتمتع بما فيها من نعيم وهناء . وكل يساير عامة الناس وينزل الى مستواهم في تفكيرهم . وبمقدار ما يساير العوام ينبذ المثقفون المنتجون من انهم اولى بالعناية والتقدير والاهتمام من العوام اذ هم الذين يكشفون عن امراض المجتمع ويقدمون له العلاج الناجع . وبدون تشجيع المثقفين المنتجين ولا سيما العباقرة منهم يظل المجتمع مريضا جاهلا شقيا متأخرا في سلم الرقي والتقدم ) .

وكانت على مقربة من احد الجنديين بندقية محشوة لم يطلق من عياراتها شيء بعد . ولما وقع نظر امين عليها تقدم اليها بضع خطوات بقدمين عصبيتين طعن بها ظهر الارض ، واخذ يجيل بصره فيها متفقدا ، ثم تناولها عن الارض في تؤدة واطبق على مقبضها اصابع احدى يديه ، ثم تناول صف الرصاص عن كتف صاحبها الجندي القتيل والقاه على كتفه وتنكب البندقية ثم اتجه نحو الغرب ــ نحو طولكرم . فاستغرب صاحباه ما فعل . وقال له شفيق :

ــ ماذا تريد ان تفعل ؟

فأجابه امين في عزم وايجاز ورزانة : ــ اريد ان اعود الى طولكرم لاحارب .

ــ ولكنك وحيد . انك تعرض نفسك للقتل .

( لا شك انك شجاع ابي النفس )

وقال يحيى لشفيق بنغمة مفعمة بالتأثر : ــ دعه . انه يريد ان يثأر للقتلى منا .

( ليت بيننا الفا من امثال هذا الرجل . اذن لتغلبنا على الاعداء ) .

ومشى امين في قوة وسخط قائلا : انني لست وحيدا ففي ذهني الوف من الاصوات تحثني على الجهاد والدفاع عن الوطن . لذا اشعر بان في جسمي قوى الوف من الناس . انني لا استطيع ان ارضي ضميري اذا لم اجاهد واكافح .

وبعد ذلك تفرق اللاجئون هنا وهناك مبتعدين عن الطريق العام لئلا يقع عليهم شيء من قنابل الطائرات . وكان يحيى يسير هو وافراد اسرته في مسلك يؤديه الى قمةجبل نبتت عليه اشجار متنوعة. اما شفيق وزوجته فقد اتخذا لهما مسلكا آخر بعد ان التقيا اقرباء لهم من النازحين .

صعد يحيى وافراد اسرته الى قمم الجبال وهبطوا الى اوديتها فنال التعب والمشقة منهم لما اعترض سبيلهم من عقبات ولما عانوه من جوع وظمأ وضلال عن الطريق . ولما حل المساء استقر بهم المقام مؤقتا تحت شجرة فينانة ليقضوا هناك ليلتهم ثم يواصلوا المسير في اليوم التالي .

وفي اثناء الليل استيقظت بنت يحيى على صوت حيوان ، فاستولى عليها ذعر شديد ، ولصقت بأمها توقظها . وقد داخل هذه خوف فايقظت بدورها زوجها . وبعد ان ارهف الزوجان السمع تبين لهما ان الصوت هو نباح صادر عن كلب. ثم ألقى الايقاظ رؤوسهم على مخدات من التراب ملتحفين بحرام واحد غطيت به اجسامهم جميعا تحت ليل من الاشجار فوقه ليل من السماء .

وفي صباح اليوم التالي تابعوا المسير بشيء قليل من النشاط ، غير انهم شعروا بآلام في اصابع اقدامهم من شدة المشي . ثم انهم جلسوا تحت شجرة ضافية الظل ليتناولوا غداء مؤلفا من قليل من الصعتر والبصل وفتات من ارغفة جافة .

انتهوا الى الفور وهو شديد الانخفاض حار الهواء . وهناك شعروا بضيق خانق من لهب الهواء وشآبيب العرق الساخن . وبذلك تكالب عليهم الجوع والظمأ والحر والعرق . كان منظرهم منظر متشردين هائمين على وجوههم لا وطن لهم ولا عشيرة ولا اقربين ولا اصدقاء . ان هؤلاء الاشخاص كانو في الامس موضع احترام الناس واعجابهم وتقديرهم وانسهم .

ولما اعترضهم نهر الاردن التفتوا حولهم فرأوا تنكات من الجبن والزيت والزيتون تركها اصحابها هناك لعدم تمكنهم من حملها . عبروا الجسر وقطعوا بقية الفور .

ثم اعترضتهم جبال السلط الشامخة فبدت كأنها مصائبهم وهمومهم مجسمة . تسلقوها تسلق الاغنام بأنفاس متقطعة وصدور مرهقة واقدام محطمة .

ــ لقد هلكت تعبا . متى نصل يا ابي ؟

ــ بعد قليل يا بنتي .

( بعد ساعات طوال ) .

وفي أعلى احد الجبال اسغرقوا في نوم عميق . وفجأة شق صوت منكر سكون الليل وعكر صفوه . تكرر ذلك الصوت الغريب . ولما زحف في اذن زوجة يحيى رفعت رأسها عن الارض مصغية . لقد ملأ الصوت قلبها رعبا ، فامتدت يدها الى كتف زوجها تهزها هزا عنيفا ليعلمها صوت اي وحش ذاك الذي تسمعه . ولكنه آثر الاستغراق في النوم قائلا : « انه صوت كلب كالعادة » . غير انه لم يلبث أن هب منتصبا حينما أيقن أن الصوت هو صوت ضبع . لقد سمعه مرة من قبل . أخذ يفكر في وسيلة للتخلص منه . ليس لديه مسدس او سكين يقتله به . وفجأة التمعت فكرة في ذهنه مستقاة من احدى القصص التي طالعها وهي ان يوقد النار لعل الضبع يبتعد عنهم . وما كاد الضبع يقترب منهم حتى اشتعلت النار فولاهم ظهره ومضى .

وفي صباح اليوم التالي واصلوا السير وهم يترنحون تعبا وضعفا . ولما اقتربوا من طريق السلط اشار يحيى الى سيارة ( باص ) فوقفت وركبوا فيها ملقين عنهم احمال تعبهم . واتجهت السيارة الى عمان.

عمان عبد الحميد الانشاصي

# جولة مع فلاسفة السخرية والفكاهة

بقلم مصطفى درويش الدباغ

* * *

ارقى انواع الفكاهة هو السخرية ، سخرية العظيم من اوضاع المجتمع الذي يعيش تحت ظلاله ، يرى فيه نقصا ، وانحرافا عن الكمال الانساني ، والمثل العليا التي يتشوقها في نفسه ، فتعتريه الحسرة ، فينتقد النقص ، ويسخر منه في قالب فكاهي ، يسخر والارض تميد تحت اقدامه، انه السخر الناتج عن الالم الانساني في ابعد مراميه ، هو السخر الهادف الذي يرجو للانسانية الكمال ، ويبين للناس نقائصهم ، ونواحي ضعفهم ، ليحيدوا عن المشرع الخاطيء وليتخذوا طريق الصواب والكمال ، وليس سخر البطر والاستهزاء والانانية ..

والساخر العظيم يتسلح بذكاء حاد ، يبين له الفرق والفراغ بين النقصان والكمال ، وفي المجال الانساني نقاط ضعف كثيرة ، يتأهب لها الذكي النابه بما امده الله به من الذكاء الفياض والروح الشفافة الحلوة ، ليكتسح هذه الثغرات الضعيفة بمعول سخره الكبير ، فنرى الفرق بين النقص والكمال .. ونستطيع ان نجد في فكاهات عباقرة السخر ونقدهم العميق البناء فيضا زاخرا من الافكار المكشفة ، يرسلونها عميقة حارة صادرة عن اتون نفسهم الكبير ، يغنينا عن قراءة كتب عديدة تلهب افكارنا واحاسيسنا وتهز انفسنا ، فنضحك منها ومن غرورنا اذ استطاع هؤلاء العباقرة ان يلتقطوا ما ران على انفسنا من الغرور ، واطلعونا على نفايات الضعف الكامن فينا ، فضحكنا وضحكوا معنا ساخرين ..

ومن كبار الظرفاء الساخرين الشاعر « امام العبد » وكان قفاشا مليح النكتة والنادرة ، وساخرا من طراز رفيع ..كان يمر مع احد اصدقائه الوجهاء ، في ليلة باردة ماطرة باحدى مقاهي القاهرة ، وعند انتهاء السهرة عرض الوجيه معطفه على امام ليرتديه اتقاء للبرد .. اذ لم يكن متدثرا بالملابس الشتوية ، على ان يعيده في ليلة ثانية ، ولامر ما لم يحضر امام الا بعد اسبوعين ، وقد تناوله الوجيه بقوارص الكلام ، واذ علم « العبد » بما تقوله عليه الوجيه ، ذهب الى سوق الثياب القديمة ( روبا بيكا ) واشترى سترة قديمة ، وما عتم حتى انطلق بها والمعطف الى حيث كان يسمر الوجيه، فتلقاه اصدقاؤه بالترحيب والتأهيل ، واعاد المعطف الى الوجيه وسلمه السترة ايضا ، ولما سأله الوجيه عن سبب احضار السترة اجاب امام : السترة هي الفائدة الفاحشة عن المعطف ..

فضحك الوجيه والاصحاب .. لقد عرض امام بالوجيه ، وكان هذا مرابيا كبيرا من الطراز الاول ، يرهن الفلاحون عنده اطيانهم ومزارعهم لقاء فائدة فاحشة ، ولا مراء ، فان وراء هذه السخرية مغزى اجتماعيا كبيرا ، فهي تأنيب الوجيه على سوء فعله مع مديونيه بالاضافة الى انه اوراه موضع النقص في اخلاقه ، وحثه على معاملة الناس معاملة انسانية ، صب كل ذلك في قالب فكاهي فيه ابداع وتفنن .

وثمة فيلسوف اجتماعي وساخر كبير ، كان استاذا لامام العبد في ميدان الفكاهة والنقد والسمر هو « محمد البابلي » ويضرب المثل بحديثه الحلو الجميل فيقولون « حديث بابلي » . كان يستمع الى المغني الكبير عبد الحي حلمي في احد مسارح القاهرة وهو يغني مقطع الدور الذي جاء فيه «اهل السماح الملاح. دول. فين اراضيهم؟» فأجابه البابلي .. في البنك العقاري يا عبدالحي ! فضحك المستمعون وضحك المغني ، وتوقف عن الغناء . لقد عرض البابلي بطائفة كبيرة من ابناء الاعيان الاثرياء ، وطلاب اللذات والشهوات ، الذين يرهنون املاكهم لدى البنك العقاري ، لقاء اقتراضهم سلفات كبيرة يبذرونها على موائد الميسر والقمار وعلى غواني المسارح ، انه تعريض بالبذخ والترف ، ونقد اجتماعي للحالة التي كان عليها الناس .. واذا كان البابلي والعبد عرفا بميدان الفكاهة والسخر ، فثمة شاعر اخر كان له جولات في ميدان الشعر والسخرية والنقد الاجتماعي العميق الا وهو « ابراهيم الدباغ » وكان هؤلاء الاقانيم الثلاثة لا يتفرقون حتى يجتمعوا اما في مقهى اسبلنديد او بار اللواء ، او في مواطن السمر في قصور الوجهاء واكابر العظماء بالقاهرة ومنها قصر شيرين ، وقصر احمد تيمور والسادات وغيرهم .

جاء احدهم الى ابراهيم الدباغ وهو بمقهى الفيشاوي واخبره عن وليمة كبرى آقامها في داره في ضواحي القاهرة ، وذكر له اصناف الماعز والخراف التي قدمها لضيوفه ، وكان يستمع اليه وهو مغضب محنق على سوء تبذيره ، ولما انتهى من الوصف والتعداد اجابه الدباغ مرتجلا امام جمع كبير من الاصدقاء :

**والذي قرب القرابين فتكا لاناس .. غدا ستسال عنها**
**من كباش ذبحتها ، وخراف انت اولى والله ، بالذبح منها**

ولقد شاهد ولع السيدات بالمساحيق وفي طلائها مسخ لمظاهر الصدق والطبيعة ، فآلمته هذه المغالطات وازعجه اقبال السيدات ابان الصيف يمرحن على شاطيء البحر ، مرتديات البسة الفتنة ، دونما وازع من حياء او دين ، يغصن في البحر سابحات غير محتشمات ، فانقبض من هذا المشهد المؤلم ، واسبغ الله على البحر الذي غطى وجهه بالموج فقال :

**تزور البحر ، فاتنة لعوب تزل خواطر الشعراء عنها**

# عطري

عطري الذي أحببته سأ ... رشه فوق الوساده
لابيت احلم بالـذي ... أهواه حبا كالعباده

وأقول في الاحلام ... ما لم استطعه في الحقيقه
حذر العيون تردنا ... حتى عن النجوى الرقيقة

عطري سأبعثه اليك ... مع النسيمات العليله
وابث في طياتها حبي ... واحلامي الجميله

لتحس رغم بعاد ... نا يا ملهمي اني قريبه
وبأنني رمز الوفاء ... وأنني أغلى حبيبه

عطري مزجت عبيره ... يا ملهمي بهوى فؤادي
لم ينس من يستافه ... في نشوة أبدا ودادي

لك انت وحدك يا ... حبيبي ذلك العطر الفريد
يوم اللقاء يضوع في ... فرح به ثوبي الجديد

لم أنس يوم سألتني ... أي العطور تفضلين
وتقول اني قد سكر ... ت وانت نحوي تخطرين

فاذا اردت ارشه فو ... ق الثرى تمشي عليه
وأقول للعطر المفضل ... بلغن شوقي اليه

عطري وحقك لن ... يفوح أريجه الا معك
من حزنه يخبو و ... يبخل بالشذى ان ودعك

يا عطري الفواح يا ... شفة ترتل أغنياتي
بل يا رسول اثنين قد ... سكرا بغير ترشفات

طف حوله انى يكون ... وبلغ الاشواق عني
وانقل له لحن الحنين مع ... الوفاء فانت مني

مصر الجديدة ... روحية القليني



تعرى ، من ملاءتها ، حيـاء ... ودين لم تصنه ، فلم يصنها
وضاع ، لبيتها شرف وطهر ... وعز هونته ، ولم يهنها
تمر بصخرة الدأماء حوتا ... ويفزعها ، مهب رياح ـ بنها ـ
رآها البحر ، مقبلة عليه ... فغطى وجهه بالموج منها

وماذا عساه ان يقول لو مد الله في اجله وشاهد السيدات يلبسن « البكيني » ويؤلفن حول خصورهن ومواقع الفتنة ، نطاقا من الاحداق والمهجات ، أتراه يقول ان نساء الماضي هم نساء هذه الايام مع تحوير لطيف في المشاهد والمباذل ، وان ما قاله بالامس عنهن وهن يذرعن الشوارع بعد ان هجرن البيوت ينطبق عليهن ما قاله من قصيدة طويلة :

واما الغيد ، والبيض العذارى ... وهن سوافر في شبه لبس
بذلن الحسن من ساق لوجه ... وخضن عليه من نظر ولمس

عمان ـ الاردن ... مصطفى درويش الدباغ

# الهوى وحديث العينين

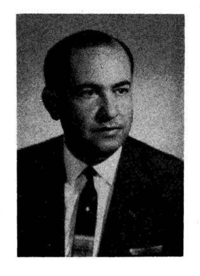
فؤاد الخشن

ما اجمل ان تنمو زهره
في قلبك ..
ان تهوى مره !
ان تصبح انسانا آخر
ان تعشق انسانا آخر
ترشف ذهلا من شفتيه
وتضيع .. تغيب بعينيه ..
ما اروع همس العينين
حين يدار
بين اثنين
اعمق من بوح الشفتين
بحديث القلبين !
العين تغيم
لتقول اهيم
ويروح البؤبؤ
يمطر لؤلؤ
ويدور حوار
كحوار النار
ومضا يشرح عن سرين
بين اثنين

●

# امنيات

اود لو الملم الانداء
عن وردة عجيبة الصفاء
اغزلها ملاءة رقيقة
لعينك الحالمة الخضراء
منامة شفيفة ازرارها النجوم
وزنبق على سنا غديرنا يعوم !
اريد ان احوك من براعم الوزال
للعاريين الناصعين شال
يلف ما اشرأب في تلهف السؤال
يا ربة تذيب في عروقي الحمم
والتوق للقمم
تحيلني « سيزيف »
في جبرية دائبة العناد
لتستقر صخرتي في ذروة المراد
تبعث بي للكشف سندباد
رؤياه لا تغيب عن وضوحها جزيره
مرصودة على اسمه
كنوزها الكثيرة !



# جمال الدين الشيال الذي فقدناه

بقلم محمد عبد الغني حسن

* * *

للدكتور « جمال الدين الشيال » بضعة عشر كتابا ما بين تحقيق وتأليف ، عدا مقالاته وبحوثه العديدة المنشورة هنا وهناك ، كالفصل الذي كتبه في كتاب « تراث مصر القديمة » الذي شارك في تأليفه نخبة من اساتذة جامعة القاهرة وطبعة المقتطف سنة ١٩٣٧ ، وكالمقال الممتع الذي نشره في المجلد الثاني من « مجلة كلية الاداب بجامعة الاسكندرية » سنة ١٩٤٤ بعنوان : « الدكتور برون والشيخان محمد عياد الطنطاوي ومحمد عمر التونسي » ، وكمقاله الذي نشره في مجلة الرسالة سنة ١٩٣٧ عن « الاسلام في غرب افريقيا » .

واذا كان الدكتور المؤرخ جمال الدين الشيال قد اختاره الله لجواره على غير طول في الاجل ومناة في العمر ، فان الله قد بارك في حياته المملوءة شبابا وصحة وحيوية ونشاطا ، فاسهم في المكتبة التاريخية بكتب ودراسات كثيرة ، اعانه عليها امور كثيرة . فقد كان ـ رحمه الله ـ قوي البناء ، شديد الاسر ، جلدا على العمل المتواصل ، والبحث الدائم ، عاكفا على كتبه ومكتبته يقرؤها في صبر جميل ، ويسجل في اوراق خاصة ما يعين على ان يقوم بحث متكامل الاطراف في موضوع معين .

والصبر والدأب وحدهما لا يكفيان ما لم يعززهما الميل الدافع ، والهوى المتدافع . وقد كان صديقنا الشيال ذا هوى ينزع به الى التاريخ منذ كان طالبا في الجامعة ، ومنذ كان مدرسا للتاريخ بمدرسة العريش الابتدائية سنة ١٩٤٠ . فقد كان في ذلك المرفأ المصري العزيز ـ رد الله غربته الينا ـ بعيدا عن القاهرة ودور كتبها ، ومجالات بحثها ، ومواسم محاضراتها . والطريق بين العريش وبين القاهرة في ذلك الزمان لم يكن بالطائرة ، حتى تطوى بها مسافة البعد ويدنو بعيدها ، ولكنه كان بالقطار الذي يقطع جزءا من ارض سيناء الغالية في عشر ساعات طوال ثقال ...

ولكن مؤرخنا الناشىء الحديث يومذاك لم يضق بمغتربه في العريش ، ولم ينب به الدهر والنوى في ذلك المكان البعيد ، فأخذ معه من كتب المراجع والمصادر ما يعينه على القراءة والبحث والتحقيق ، حتى تهيأ له في تلك الفترة ان يخرج مخطوطا للمؤرخ المقريزي عنوانه « اغاثة الامة بكشف الغمة » . ولم ينفرد جمال الدين الشيال بتحقيق هذا المخطوط الهام ونشره لاول مرة في العالمين العربي والغربي ، فلقد شاركه في التحقيق والنشر استاذه وصديقه الدكتور محمد مصطفى زيادة الذي كان في ذلك الحين استاذا مساعدا في كلية الاداب بجامعة القاهرة .

ولا يكاد هوى الشيال ونزوعه الشديد الى التاريخ يخفى علينا لحظة واحدة . فان كتبه التي ألفها وحققها ، ومقالاته التي دبجها وحررها تدل عليه ، وتشير اليه بوضوح ظاهر . على انه هو احيانا كان في بعض المواطن من كتبه وتحقيقاته يشير الى هذه النزعة التاريخية التي هيأه الله لها ، وأساره في دربها .. فنراه يقول ـ مثلا ـ في مقدمة لكتابه المفيد الطريف « أعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي » الذي نشرته دار المعارف سنة ١٩٦٥ : « وأنا منذ اخترت لنفسي ـ او اختار لي القدر ـ التخصص في دراسة التاريخ الاسلامي وجدتني أشغف شغفا كبيرا بتواريخ المدن ، وتواريخ الثغور البحرية بصفة خاصة ... »

ولعل غرامه بالتاريخ للثغور والمدن البحرية قد جاء من كونه هو من مواليد احد الثغور المصرية . فان مدينة « دمياط » هي وطنه الصغير ومسقط رأسه . على ان الله العلي القدير شاء ان يربطه بالثغور والموانيء المصرية برباط آخر لا يقل عن رباط المولد قوة وآصرة . فقد تزوج من الاسكندرية ، وكان ولداه وبناته من أهل ذلك الثغر العريق . ولا يدع هو ـ رحمه الله ـ هذه اللفتة تمر دون ان يبرزها في اطار خاص . فهو يهدي كتابه عن اعلام الاسكندرية : « الى زوجتي بنت اسكندرية ، والى ولدي وبناتي ابناء وبنات اسكندرية ». وهو اهداء فيه من الوفاء للصهر والنسب والزوجة والاولاد وموطن العمل ما فيه .

ولقد شاء الله ان يرتبط الدكتور جمال الدين الشيال بالاسكندرية برباط آخر قوي لاصق ، هو رباط العمل والكسب والمعاش . فقد عين للتدريس في جامعة الاسكندرية سنة ١٩٤٣ والحرب العالمية الثانية في رابع اعوامها . وكان تعيينه هذا في جامعة الاسكندرية ، او نقله من التدريس بمدارس وزارة المعارف الى التدريس بكلية الاداب ، ذا أثر كبير في حياته كلها . فقد كان قصاراه في الوزارة ان يكون ناظرا او مفتشا او مديرا في احدى المناطق التعليمية . ولكن الجامعة فتحت امامه مناهج البحث ، وسبل الدرس ، وشعب الانتاج ، فأخصب في هذا المجال اخصابا كأنما كانت هذه الوظيفة على قده ...

ولم ينس «الشيال» فضل الذين أعانوه في هذا النقل الذي غير مجرى حياته . ففي سنة ١٩٤٨ اصدر كتابا للمقريزي من تحقيقه عنوانه « اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا » ، ولم يفته ان يصدر الكتاب بأهداء وفي نبيل الى استاذه المؤرخ الكبير عبد الحميد العبادي « بك » عميد آداب الاسكندرية واستاذ التاريخ الاسلامي بها حينذاك ، يقول فيه : « واني لأعتبر هذا النقل اهم حادث في حياتي ، فقد أتاح لي الجو الملائم لاشباع هوايتي ، والاقبال على الدرس والبحث والانتاج . ثم أتاح لي ايضا القرب منكم والعمل تحت اشرافكم حتى حصلت على درجتي الماجستير والدكتوراه » ...

ونستطيع ان نعد المؤرخ المرحوم عبد الحميد العبادي أحد العوامل التي ساعدت على توجيه جمال الدين الشيال هذه الوجهة التاريخية الاسلامية . فقد كان طالبا في كلية الاداب بجامعة القاهرة فيما بين سنتي ١٩٣٢ ، ١٩٣٦ ، وكان تلميذا للمرحوم العبادي . وقد أعجب ـ كما يقول ـ بطريقته الفذة في تناول التاريخ العربي واحيائه ، وباسلوبه الممتاز في عرض الاحداث وتحليل الشخصيات . ولم يقطع الطالب صلة باستاذه بعد تخرجه في الجامعة سنة ١٩٣٦ . فظل على قرب منه ، وزيارات قريبة له « فبهرتني روحكم العالية ، ونفسكم الصافية . وحببني هذا كله في دراسة التاريخ الاسلامي ، فأقبلت على قراءة كتبه اقبال الشغف ... »

ورأى العبادي في جمال الدين الشيال ما يبشر بخير ، ويعد بثمرة طيبة في مجال التاريخ والدراسات الجامعية . فرشحه للنقل من وزارة المعارف الى الجامعة ، وزكى هذا الترشيح بقوة ومساندة غالبة ، حتى دخل الشيال آداب الاسكندرية مدرسا للتاريخ الى ان انتهى بها عميدا لها واستاذا للتاريخ الاسلامي فيها حيث اختاره الله الى جواره ( يوم الخميس ٢ نوفمبر ١٩٦٧ ) .

ولقد ذلل الشيال اكناف العلم ، ووطأ لها مهاد الثقة الجامعية ذلك الخلق السمح الرضي الذي جمل الله به نفسه . فقد لاحظت عليه ـ منذ عرفته سنة ١٩٤٥ ـ سماحة في الطبع ، ونبالة في الخلق ، وتواضعا في القدر لم أصادفها في كثير من المشتغلين بالعلم الذين القت بهم الاقدار في طريقي ... وتحمل توقيعاته باهداء كتبه الي تشريفي « بصداقته » ، وهي كلمة كان يحرص على كتابتها الي

في كل اهداء . وما أظنه أخل يوما واحدا بحقوق الصداقة التي الزم نفسه بها ، وربط نفسه بوثاقها ...

فهو عالم يحبه كل من رآه ، ويحب هو كل انسان ، ويبذل حبال مودته بأيسر جهد . ولعل من سماحة نفسه وكرم خلقه ذلك الوفاء النادر منه ، الذي بدا في سلوكه مؤيدا لما كان يبدو من أقواله . وكلمته الى أستاذه المؤرخ عبد الحميد العبادي في صدر كتاب « الاتعاظ » للمقريزي تحمل دلائل قوية على هذا الوفاء المحض . على ان كتابه الذي ألفه سنة ١٩٤٧ بعنوان « مصر والشام بين دولتين » وصدر عن « دار الفكر العربي » يحمل معنى آخر من معاني الوفاء والعرفان لصديقه وزميله الاستاذ محمد خلف الله الذي كان أستاذا للادب العربي بآداب الاسكندرية في ذلك العهد ، والذي أصبح وكيلا لجامعة عين شمس بعد ذلك . فقد صدر جمال الدين الشيال كتابه ـ او قصته التاريخية هذه ـ باهداء نرجو ان تتسع له بضعة أسطر من هذا المقال تقديرا للخلق النبيل ، يقول فيه : « أخي خلف الله . كان لي اخوان شقيقان هما المرحومان الاستاذان حامد ومحمد عبد الرحيم ، وكانا يكبرانني سنا . وعلم الله لقد كانا في الشباب مثالين عاليين : أخلاق نبيلة كريمة ، ووطنية مخلصة صادقة ، وايمان بالله عميق وثيق ، ونفس طاهرة صافية .

ولقد نعمت باخوتهما زمانا كنت فيه طفلا وصبيا ويافعا ، فكانا لي القدوة الطيبة والاستاذين الجليلين ، فقبست من شمائلهما ما زلت اعتد به حتى اليوم . ثم تخيرهما الله لجواره خير ما يكونان أملا باسما مبشرا ، واشد ما أكون حاجة الى اخوتهما وعونهما . وبقيت وحدي أنشد الاخ في الحياة فلا أجده ، وأكتم الالم على فقدهما في أعماق نفسي ، وابكيهما بقلبي ووجداني . وذخيرتي الوحيدة التي أستضيء بها ، هي ذكرى هذه الاخوة الحبيبة ـ وكأنها حلم جميل ـ ألتمسها كلما ادلهمت بي الخطوب او احتجت الى الاخ المعين ..

ثم نقلت الى الاسكندرية ، وتعرفت اليك ايها الاخ النبيل ، فعرفت فيك صورة من أخوي الراحلين ، ووجدت من عواطفك الرقيقة ، وخلقك الانساني ، وعطفك علي عوضا طيبا عما فقدت بفقد أخوي ... »

والحق اننا وقفنا عند خلق المؤرخ الراحل جمال الدين الشيال وقفة خاصة ، لاعتقادنا بأهمية الاخلاق للعلماء . وأولينا الخلق عنده سبقا في الحديث عنه قبل ان نمضي فيما نحن بسبيله من اهتماماته التاريخية ، وتصنيف مؤلفاته وكتبه ، ومحاولاته لعرض تاريخنا القومي والاسلامي عرضا قصصيا جذابا ، ومنهجه في التحقيق الذي أخذه عن استاذيه عبد الحميد العبادي والدكتور محمد مصطفى زيادة ، وزاد عليه باجتهادات شخصية كثيرة ، واسلوبه الذي كان يكتب به مؤلفاته ، ويحرر به مقدمات تحقيقاته ، واهتمامه البالغ في المخطوطات التي يحققها ، والكتب التي يصنفها ، والمقالات التي يدبجها بابراز العنصر القومي ، واظهار العامل الوطني ، واهتماماته البالغة بمخطوطات المقريزي المؤرخ ، حتى لقد نوى ان يجعل من صغارها في الحجم مكتبة صغيرة اسماها باسم « مكتبة المقريزي الصغيرة » سيرد الحديث عنها عما قليل ، وترحيبه بنقد كتبه وتحقيقاته ، لا يضيق بنقد ولا ناقد ، كما كان استاذاه العبادي ومحمد مصطفى زيادة ، وكما يكون الافاضل دائما من أهل العلم وطلاب الحقيقة ، ورواد المعرفة .

واذا استعرضنا كتب الشيال المؤرخ وجدناها تنحصر في أربعة أصناف من العمل التاريخي : أولها تحقيق المخطوطات واخراجها على أحسن الوجوه القريبة مما اراد لها مؤلفوها الاوائل . واذا كان رحمه الله قد اهتم اول الامر بكتب المقريزي ، فانه اتجه بعد ذلك الى غيره من قدامى المؤرخين . فقد رأيناه ـ وهو مزدحم الرأس والفكر والوقت بمكتبة المقريزي الصغيرة ـ يتجه الى المؤرخ جمال الدين به واصل المتوفي سنة ٦٩٧ هـ ليخرج كتابه الضخم : « مفرج الكروب ، في أخبار بني ايوب » منشورا لاول مرة في العالم كله عن مخطوطات كامبريدج وباريس واستانبول ، ومحققا على منهجه السليم الدقيق في التحقيق .

ولقد كانت بعض الاعتبارات الوطنية والقومية ـ بالاضافة الى الاعتبارات الاسلامية ـ تملي على الدكتور الشيال اتجاهاته في اختيار المخطوطات التي يحققها . فكتاب « مفرج الكروب » هو في تاريخ الدولة الايوبية ، والجزء الثاني من هذا الكتاب هو تاريخ للبطل المسلم صلاح الدين وجهوده الكبيرة التي بذلها لتكوين الجبهة الاسلامية المتحدة ، وجهاده الاعظم ضد قوى الصليبيين الذي توج أخيرا بانتصاره الحاسم الرائع في موقعة حطين ، واسترداده بيت المقدس بعد ان ظل تحت حكم الصليبيين قرابة قرن من الزمان . ولا شك ان اختيار هذا الكتاب للنشر كان لهذا ..

وهذه الاعتبارات القومية والوطنية العالية جعلت الشيال المؤرخ متيقظا شديد التيقظ لكل ما يبرز الشعور القومي في مصر . فهو يلاحظ ان المقريزي سبق رجال عصره بهذا الشعور القومي حين قال في مقدمة كتابه « المواعظ والاعتبار » المعروف بخطط المقريزي : « وكانت مصر هي مسقط رأسي ، وملعب أترابي ، ومجمع ناسي ، ومغنى عشيرتي وحامتي ، وموطن خاصتي وعامتي ، وجؤجؤي الذي ربى جناحي في وكره ، وعش مأربي فلا تهوى الانفس غيره ذكره . ولا زلت ـ منذ شدوت العلم ـ وآتاني ربي الفطانة والفهم ، أرغب في معرفة اخبارها ، وأحب الاشراف على الاغتراف من آبارها ، واهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها ... » ويقول الشيال عن هذا الشعور القومي عند المقريزي : « هذا الشعور الوطني القوي الممتاز كان شعورا مبكرا ، سبق به المقريزي عصره ، فنحن لا نجد له شبيها حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي حين يبدأ الشيخ رفاعة الطهطاوي بشيد بذكر الوطن والوطنية في كتابه : مناهج الالباب المصرية ، وفي اناشيده الشعرية الكثيرة ... »

ومن هذه الناحية القومية الوطنية جاء اهتمام جديد آخر للدكتور الشيال ، فاعجب بالشيخ رفاعة الطهطاوي الرائد المصلح ، وترجم له سيرة حافلة . ولم يكتف بأن يؤلف في ذلك كتابا واحدا بل صنع في الطهطاوي كتابين يكادان يكونان متغايرين : أولهما في سلسلة « أعلام الاسلام » سنة ١٩٤٥ بعنوان « رفاعة الطهطاوي » ، وثانيهما في مجموعة نوابغ الفكر العربي » سنة ١٩٥٨ بعنوان « رفاعة رافع الطهطاوي » .

والثاني من تصنيف العمل التاريخي عند الشيال هو التراجم والسير . وقد قسم الشيال نفسه هنا بين التراجم للرجال ، والتراجم للمدن . أما التراجم للرجال فقد وزعها على رفاعة الطهطاوي في الكتابين اللذين سلف الحديث عنهما ، وعلى « أعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي » ـ وقد ترجم فيه لثلاثة عشر علما اسكندريا منذ العصر الاول للاسلام الى زماننا هذا . وكل منهم بارز في ميدانه ، سواء أكان عالما أم مؤلفا أم صوفيا ، أم وطنيا ثائرا ، أم مجاهدا . والاعلام الثلاثة عشر هم : أبو الدرداء ، وعبد الرحمن بن هرمز ، والطرطوشي ، وابن عنان ، وابن عوف ، والحافظ السلفي ، وأبو الحسن الشاذلي ، وأبو العباس المرسي ، وابن عطاء الله السكندري ، والقباري ، والسيد محمد كريم ، وعبد الله النديم ، والشيخ عبد العزيز شاويش .

على ان هناك مجموعة من التراجم للرجال نشرت له في فصول ومقالات . كترجمته لعمرو بن العاص في مجلة المعهد العالي للتربية سنة ١٩٣٧ ، وترجمته للشاعر تاج الملوك بوري بالثقافة عدد ١٣٠ ، وترجمته للشاعر ابن عينين بمجلة الثقافة عدد ٢٥٤ ، وترجمته الرائعة للدكتور برون والشيخين محمد عياد الطنطاوي ومحمد عمر التونسي المنشورة

بمجلة كلية الاداب بالاسكندرية ـ العدد الثاني سنة ١٩٤٤ .

اما تراجمه وسيره للمدن العربية الاسلامية فقد خص بها ثغر دمياط في كتابه « مجمل تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا » المنشور سنة ١٩٤٩ ، كما خص الاسكندرية بكتابه « الاسكندرية . طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور الى الوقت الحاضر » المنشور سنة ١٩٥٢ بالقاهرة . على ان الفسطاط كانت محل عنايته ايضا فكتب فيها بحثا طيبا عنوانه « الفسطاط . كيف اختير مكانها ، ولم سميت بهذا الاسم » نشر بمجلة الرسالة ، العدد ٦٤٠ .

والثالث من تصنيف العمل التاريخي عند الشيال هو القصص التاريخي الجذاب ، وقد أسهم فيهذا المجال بكتاب واحد هو « مصر والشام بين دولتين » ، ويصور الاحداث في القطرين الشقيقين زمن انحلال الدولة الفاطمية وقيام الدولة الايوبية . وقد مهد الشيال لنشر هذه القصة التاريخية بقبوله : « ان هذا التاريخ لو استخلص من هذه المخطوطات ، ونفضنا عنه ما يتعلق به من أسانيد واستطرادات وعرضناه على شبابنا عرضا قصصيا جذابا ، اذن لوجد طريقه الى نفوسهم سهلة ميسورة ، واذن لاثر فيهم اثرا طيبا فأحيا هممهم ، وشحذ عزائمهم ، وزودهم بتجارب غالية ثمينة ، تفيدهم الفائدة كلها وهم يضطربون في هذا العصر القلق ، يبنون لانفسهم وللعرب أسس النهضة الجديدة ... »

وقد ظهرت هذه القصة سنة ١٩٤٧ اي بعد تعيينه في جامعة الاسكندرية بأربع سنوات ـ وقد قصد بها ان تكون اولى المحاولات في هذا الميدان ، ولكننا نستظهر ان شواغل البحث والدرس والمحاضرات والتحقيق والتاليف التاريخي المبتكر قد صرفته عن هذا المجال جملة، فكان كتابه هذا بيضة الديك كما يقول شاعرنا القديم ..

اما التاليف والبحث فهو رابع مجالات التصنيف للعمل التاريخي عند مؤرخنا الراحل . ولم يكن ـ رحمه الله ـ فيه مقصرا ، ولا عنه وانيا . وله فيه كتاب « تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي » المنشور بالقاهرة سنة ١٩٥١ ، وكتاب « تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية المنشور بالقاهرة سنة ١٩٥٠ .

ولم يكن الشيال يحقق المخطوطات التاريخية بلا منهج . وقد اخذ المنهج عن استاذه الدكتور محمد مصطفى زيادة . فهو يستوفي النسخ الخطية في اماكن وجودها قدر طاقته . ولقد حدث له في تحقيق كتاب « الذهب المسبوك » ، في ذكر من حج من الخلفاء والملوك » للمقريزي انه حصل على نسخة خطية ثالثة من الكتاب بعد تعديله على نسختين . فوجد النسخة الثالثة ـ بعد ان قطع في قراءة النسختين شوطا كاملا ـ تفضلهما قدما وصحة وضبطا . فعاد من جديد ليقابل النص كله على النسخة الجديدة . وحين قام بتحقيق كتاب « نحل عبر النحل » للمقريزي ، كان يتمنى لو حصل على مخطوطتي ليدن وباريس لولا حيلولة الظروف العالمية دون ذلك ، فكتب في المقدمة يقول : « ومما لا شك فيه ان نشر وتحقيق اي مخطوط يكون اقرب الى الكمال اذا حصل الناشر على كل النسخ الموجودة منه . وكنت اتمنى ان أوفق للحصول على نسختي باريس وليدن ، غير ان الظروف الحالية ـ سنة ١٩٤٦ ـ حالت بيني وبين تحقيق هذه الامنية ، فبدأت تحقيقه معتمدا على نسخة دمياط وحدها ... »

وتمتاز المقدمات التي يكتبها الشيال للمخطوطات التي يحققها بدراسات وافية ، وملحوظات ثمينة عن الكتاب وعصره ومؤلفه وقيمته ، واستنباطات ذكية ، وطرائف ممتعة . ففي مقدمة للذهب المسبوك للمقريزي يلاحظ بذكاء وفهم عميق ان المقريزي اعترف بخلافة عبد الله بن الزبير ، ولهذا سلكه في سمط الخلفاء الذين حجوا ... كما يلاحظ ان احدا من خلفاء دولة بني أمية بالاندلس ، او خلفاء الفاطميين بالمغرب ومصر لم يحج ... كما يلاحظ ان المستنصر الفاطمي كان يخرج في موكب الى الحج خروجا وهميا ! ويلاحظ ايضا ان واحدا من سلاطين الايوبيين لم يذهب الى الحج ، ويعلل هذا بانشغالهم بالجهاد الاعظم ضد الصليبيين .

ويمعن الشيال في التحقيق الدقيق حتى لعناوين الكتب التي حققها .. فكتاب « اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الخلفا » هو كذلك عند المؤرخ ابن تغري بردى ، ولكنه عند السخاوي والسيوطي اسمه : « اتعاظ الحنفا ، باخبار الائمة الفاطميين الخلفا » بالقاف لا بالفاء في الكلمة الاخيرة ، ويفسره حاجي خليفة ، بأنه من « خلق الامل » ،

ولا يكتفي الشيال في تحقيقه للمخطوطات بالرجوع الى النسخ الخطية للكتاب نفسه ، بل يذهب الى ابعد من هذا ، فيحقق على الكتب والمؤلفات التي رجع اليها صاحب المخطوط . فاذا كان الطبري المؤرخ وابن الاثير صاحب « الكامل » يشيران في آخر كل سنة ـ اي في اعقاب حوادثها ـ الى من خرج للحج من الخلفاء في عهود الراشدين والامويين والعباسيين ، فان مؤرخنا الحديث جمال الدين الشيال يعتبر الطبري وابن الاثير مرجعين ثانويين يعود اليهما لمقابلة النص من كتاب « الذهب المسبوك » وتصحيحه ، كما يستعين على تصحيح ذلك بكتاب « جمهرة انساب العرب » لابن حزم ، و « حلية الاولياء » لأبي نعيم . وكثيرا ما يعود صاحبنا ـ رحمه الله ـ الى دواوين الشعراء ليعارض الشعر الوارد في الكتاب المحقق على أصوله في الدواوين ، كما فعل في كتاب « اتعاظ الحنفا » للمقريزي واشار الى ذلك في مقدمته .

وقد يزدحم الكتاب المخطوط باعلام ومصطلحات خاصة كانت في الاستعمال واسماء بلدان وامكنة ، وهنا نرى الشيال يترجم للاعلام في الهوامش ترجمات وجيزة مجزية ، كما يعرف في الهوامش ايضا بالمصطلحات والاستعمالات التي لا تجيء في معاجم اللغة . ولا يكتفي بذلك التعريف الضروري للقارىء بل يضع في آخر الكتاب فهارس وافية للاعلام والاماكن والمصطلحات التاريخية من دواوين ووظائف وملابس واسلحة وسفن ونقود وموازين ومكاييل . وقد يزيد في انواع الفهارس ، فيجعل واحدا للاديان والفرق والمذاهب والملل والنحل ، وآخر لاسماء الكتب المذكورة في متن الكتاب المحقق ، كما صنع في « الاتعاظ » .

ويحاول الشيال دائما ان يعين القارىء والباحث في كتابه المحقق ولا يعينه بالحيرة في اسماء الاعلام وما يستتبعها من كنايات والقاب قد يشتهر بها العلم فلا يعرف ما أصله . فالخليفة الامين العباسي هو « محمد » . والسفاح هو « ابو العباس » . والخليفة المأمون العباسي هو « عبد الله » . والملك الناصر صلاح الدين الايوبي هو « يوسف بن ايوب » . وبيبرس البندقداري هو الملك الظاهر ركن الدين وهكذا . فلا يضل باحث ولا قارىء في التهدي الى شخصية في الكتاب المحقق بأسرع نظرة ، وادنى جهد .

ولما كان بعض النساخين على مر العصور يتساهلون في الرسم الاملائي ، فان جمال الدين الشيال لم يتقيد في تحقيقه للمخطوطات بطريقتهم . فاذا كانوا يكتبون ( ذخاير ) ، ( وحايزة ) بالياء بدلا من الهمزة ، فان الشيال لم يتبع طريقتهم ، ورسمها على الاصول والقواعد المقررة في رسم الحروف وقواعد الاملاء . وقد اشار الى طريقته هذه في مقدمات كتبه حتى يكون القارىء على سواء من الامر .

واذا التقى الشيال في اثناء تحقيقه بموضوع اوجزه المؤلف القديم ، فانه يكلف نفسه عناء كثيرا بهدايته الى المصادر والمراجع التي يمكن ان يكون الموضوع فيها قد عولج معالجة وافية . فقد اشار المقريزي في « الذهب المسبوك » اشارة عابرة الى غزو الملك المعظم توران شاه للنوبة واليمن . ولكن الشيال يحيل في الهامش الى مراجع مطبوعة وخطية تشتمل على تفاصيل الغزو . وتصور أنت بربك اي جهد بذله المحقق في هذا السبيل ...

## لمن ؟

أحب نداء حبيبي اليك ... أحب ارتعاشي ولهفي عليك
أحب غروري أحب هواني ... أحب الركون الى مقلتيك
أحب انسياب ضلوعي شعرا ... يطيب ويحلو على شفتيك
أحب انسكاب كلامك همسا ... يفل الحنايا فتجثو لديك

أنا لست أدري الى م المسير ... حبيبي ولا ما يجن الضمير
فاني واياك قيد النوى ... وبين الجوانح حلم غرير
أنا ان رعيت غروري زمانا ... فها قد رعاني حنين مرير
وعشت أجر جر خيبة عمر ... أماني تصبي وذكرى تثير

لمن ستهب أعاصير حبي ... ومن سيعيد الحياة لقلبي
ومن سيلبي اذا ما النداء ... هزيم يسد منافذ دربي
ومن سيثير قصيدي رؤاه ... فيصبو ويعيا لديه التصبي
لمن يا حبيبي ساشكو وأهفو ... ومن سأنادي ومن سيلبي

دمشق ... سلافة العامري

على ان ذلك لا يمنعنا هنا ان نقول : ان جمال الدين الشيال لم يبلغ في ذلك كل ما نريد . فقد تفوته احيانا كلمات وحروف لا يهتدي فيها الى وجه من الحق . كاسم الامير « سيف الدين طقز تمر » فقد سجله في « الذهب المسبوك » هكذا ، ثم قال عنه في الهامش : « كذا في الاصل ، وهو في السلوك : طقتمر » . وكاسم ملك التكرور من اقصى بلاد المغرب ، فقد ذكره في « الذهب المسبوك » : سرمندانه ، وعلق عليه في الهامش بقوله : « كذا في الاصل وهي في نسخة ل ، و ب : سربندانه .. »

وهكذا تركنا في تحقيق اللفظة حائرين لا نهتدي فيها الى اصل يعول عليه . وقد كان الشيال يحاول في كل كتاب يحققه او يؤلفه ان يفيد من كل مرجع قديم اوحديث . ولكنه ـ لاعتبارات لا نعرفها ـ قد يهمل اسم مرجع لا يعفيه من اللوم اهماله او اغفاله . فحين اصدر في سنة ١٩٥٨ كتابه عن رفاعة رافع الطهطاوي فاته ان يجعل من مراجعه كتابا نفيسا عن رفاعة الطهطاوي للمرحوم الدكتور احمد احمد بدوي استاذ الادب بدار العلوم ومشارك الشيال في شرف الانتساب الى دمياط ...

ويتميز اسلوب الدكتور جمال الدين الشيال في مؤلفاته وبحوثه ومقدماته ومقالاته بالبساطة التامة والوضوح والبعد عن الاغراب في الاساليب والالفاظ . فلا دائما يؤثر اللفظة السمحة المتداولة المالوفة على اللفظة التي تقرع الاذن بغرابتها . ولا نجد له لفظة معجمية غريبة الا في مقدمة كتاب « اغاثة الامة » للمقريزي . واللفظة هي « تنتفش » بمعنى : تزدحم وتمتلىء ! . كما نجد في المقدمة نفسها كلمة «حرد» المتن المقابلة لكلمة Galophon وهو الخط او الرقش الذي يوجد في آخر الكتاب المخطوط . وعذره في هذا الاغراب ان شريكه في المقدمة وفي تحقيق « اغاثة الامة » هو استاذه الدكتور محمد مصطفى زيادة الذي يتانق احيانا بالاغراب في الالفاظ والعبارات على سبيل الاطراف ...

ولقد كان المؤرخ المحقق الشيال يرحب بكل ما يوجه الى اعماله من نقد ، ولا يضيق به . ويعتبره عونا على الاصلاح وتقويم المنهج . وكثيرا ما كان ينشر هذه النقود او يشير اليها كما فعل في نقد كتاب « مفرج الكروب في اخبار بني ايوب » ـ ج ١ . فقد اشار الى الناقدين في مقدمة الجزء الثاني ، وعد ذلك تشجيعا منهم وتقريظا . ومن ذلك نقد استاذه الدكتور زيادة ، ونقد الدكتور حسين مؤنس ، ونقد الدكتور مصطفى جواد العالم العراقي ، ونقد الاستاذ « كلود كاهن » استاذ تاريخ العصور الوسطى في جامعة استراسبورج .

وما وجدت المرحوم الشيال ضاق بنقد كما فعل في نقد المرحوم الشيخ احمد محمد شاكر كتاب « نحل عبر النحل » للمقريزي في مجلة « الكتاب » التي كانت تصدرها دار المعارف . ففي عدد فبراير سنة ١٩٤٧ من هذه المجلة وفي ص ٦٤٣ رأينا الشيال بعد الرد الموضوعي على النقد وفي آخر المقال يشير الى طريقة الشيخ احمد شاكر قائلا : « وبعد ! فهذه بعض المآخذ التي اراني أخالف فيها الاستاذ الناقد ، وبقي ان اشير الى ان الاستاذ قد اصطنع لنفسه عند النقد برجا عاجيا ، وفرض ـ وهو يجدث من هذا البرج ـ انه فوق كل الناس علما ومعرفة ، فهو يخاطبهم دائما كما يخاطب الاستاذ الكبير تلاميذه الجاهلين اوالمبتدئين .. » . وقد شاء الله ان اكون شاهد هذه المعركة بين عالمين جليلين ، وان يوفقني الله فيها الى الصلح بين الطرفين ...

بقي ان نذكر ونحن من هذا المقال على خواتيمه لماذا شغف الدكتور الشيال المؤرخ الحديث بكتب المقريزي مؤرخ العرب والاسلام ومصر في القرن التاسع ؟ لقد كشف لنا هو نفسه عن جواب هذا السؤال حين ذكر في مقدمته البديعة لكتاب « نحل عبر النحل » ان كتب المقريزي الصغيرة الحجم تحتوي على مناقشة بعض نواحي التاريخ الاسلامي ، او عرض موجز لتاريخ بعض اطراف البلاد الاسلامية ، او التاريخ لبعض النواحي الاجتماعية والاقتصادية في العالم الاسلامي عامة ، وفي مصر الاسلامية خاصة . وفي هذا الصنف الثالث او الاخير من كتب المقريزي بعد الرجل قليلا عن تواريخ الخلفاء والملوك والسلاطين والامراء ، وقرب فيها قليلا من الشعب ومشكلاته الاجتماعية والاقتصادية . والكتب التي تؤرخ للشعب وتهتم به وبمسائله هي احب الكتب الينا ، لانها تؤرخ لنا ، وتصور حياتنا نحن ، وتعالج مشكلاتنا نحن ، فنجد فيها من العزاء ، والصبر ، ما لا نريده في الكتاب الذي يؤرخ للحكام .

القاهرة ... محمد عبدالغني حسن

من اعلام الفكر والادب في فلسطين

# عبد الحميد ياسين ـ حسن الكرمي برهان الدجاني

بقلم البدوي الملثم

* * *

## ١ ـ عبد الحميد ياسين

عندما أتصدى للحديث عن عبد الحميد ياسين هذا المفكر المربي أتجاهل العاطفة التي تربط ذاته الى ذاتي ، والتزم جانب الموضوعية والحذر، ورائدي كلمة « آرسطو »في « افلاطون » : « ان كل الاحاسيس الشخصية يجب ان تطرح جانبا وان افلاطون احب الناس الي وأقربهم الى قلبي ، لكن حبي للحق يفوق حبي لأفلاطون بمراحل ! » .

ولد « عبد الحميد » في بلدة اللد بفلسطين عام ١٩٠٨ ، وتلقى دراسته الثانوية في كلية « دار المعلمين » بالقدس ، وفي عام ١٩٢٤ تخرج منها يحمل شهادتها . وبعد ممارسة التعليم ست سنوات التحق بالجامعة الاميركية في القاهرة وتخرج منها يحمل شهادة بكالوريوس في العلوم الاجتماعية والادب عام ١٩٣٣ .

عمل عبد الحميد في حقل التدريس في مدارس حكومية وفي مدرسة الفرندز برام الله وعني خلال تدريسه في هذه بتنظيم حفلات « عكاظ » الادبية ، وقام مع زملائه فيها برحلة لأوربا عام ١٩٢٥ وفي عام ١٩٣٦ عين مساعدا لمدير البرامج العربية في محطة الاذاعة الفلسطينية في عهد مديرها المرحوم الشاعر ابراهيمطوقان .

وفي عام ١٩٣٧ نقل الى «مكتب الترجمة» احد فروع السكرتيرية العامة بالقدس ، وفي عام ١٩٤٢ عين مساعدا لمفتش دائرة شؤون العمل ، وفي عام ١٩٤٥ عين مفتشا للجمعيات التعاونية ، وفي مطلع عام ١٩٤٦ استقال من عمله الحكومي ، والتحق بـ «المكتب العربي» في القدس مساعدا للمدير ثم مساعدا لمدير المشروع الانشائي وبعد حين استقال من عمله وعين مديرا لادارة بلدية يافا عام ١٩٤٧ .

وعند حلول النكبة الفلسطينية في عام ١٩٤٨ هاجر الى الاردن ، ثم بارحها الى القاهرة حيث عمل مسجلا للجامعة الاميركية ومدرسا وعميدا لكلية التربية فيها ، ومحررا لمجلة «التربية الحديثة» الصادرة عنها . وفي اثناء عمله هذا أحرز شهادة بكلوريوس في التربية منها .

وفي عام ١٩٥٣ عاد الى الاردن وعهد اليه بادارة « دار المعلمين » لدى انشائها بعمان وفي عام ١٩٥٦ قام برحلة الى الولايات المتحدة وبريطانيا للاطلاع على الاساليب التربوية فيها ، وانشأ في دار المعلمين مجلة باسم « رسالة العلم » وترأس تحريرها .

وفي عام ١٩٥٣ عاد الى الاردن وعهد اليه بادارة « دار المعلمين » عام ١٩٦٢ عاد الى وزارة التربية والتعليم الاردنية رئيسا لدائرة البحث والاحصاء والتخطيط فيها ، ثم استعارته الجامعة الاردنية أمينا عاما لها ، وفي عام ١٩٦٤ وقع عليه اختيار المسؤولين في الاردن ليكون رئيسا لدائرة التربية والتعليم في وكالة غوث اللاجئين بالاردن .

وفي عام ١٩٦٥ أعير الى منظمة التحرير الفلسطينية عضوا في لجنتها التنفيذية ومديرا لمكاتبها في القاهرة وممثلها الدائم لدى جامعة الدول العربية . وفي عام ١٩٦٦ عاد الى وزارة التربية والتعليم الاردنية مديرا للتعليم العالي فيها ، ثم استعارته مؤسسة الاسكان الاردنية لدى انشائها عام ١٩٦٦ مديرا عاما لها . وفي ربيع ١٩٦٧ مثل الاردن في ندوة للاسكان الريفي عقدت في كراكاس ، عاصمة فنزويلا ، وعين عضوا في اللجنة الاردنية للتعريب والترجمة والنشر .

وبالرغم من هذه المناصب الحساسة والوان النشاط المتنوعة ، ظل عبد الحميد ولوعا بشؤون التربية والثقافة والادب .

خلال دراسة عبد الحميد في دار المعلمين بالقدس تأثر باستاذه الدكتور خليج طوطح الى حد بعيد ، وظل يتأسى خطاه في تفكيره واحكامه واستقامته ، وودع تلك الدار الى دنيا الناس المكتظة بالصراع ، وهو مسلح بصفات قبسها من رائده الاول الدكتور طوطح أبرزها : الصدق في القول ، والانجاز في الوعد ، والصراحة في الرأي . لكن بعض الناس الذين ولج عبد الحميد مجتمعهم لم يستسيغوا هذه الصراحة من مثقف ند عن دربهم ، وجانب سلوكهم ! وعبد الحميد يتعشق العدل والانصاف ، ويمقت الظلم وهضم الحقوق، فتراه يحارب الظالم مهما سمت قمته ، وتعالت منزلته ، لان في عقيدته سبة وعار .. ولان الظالم في يقينه عدو من اعداء الانسانية !

ولم يتورع عبد الحميد وهو موظف في حكومة الانتداب بفلسطين عن مهاجمة الحاكم الباغي ، تارة بقلمه ، وتارات باحاديث وأقاصيص بثها من دار الاذاعة الفلسطينية نفسها بلباقة هي من أبرز خصائصه .

والمستعمر أنى كان فهو في نظر عبدالحميد طفيلي يعيش على امتصاص دماء الشعوب ، ولا بد لدولته ان تدول . ودستوره في الحياة « لا يصح الا الصحيح » كما ان من شعاراته « ان الحق أبلج والباطل لجلج » و « ان الفنى غنى النفس » و « ان الدين المعاملة » .

ومن شعاراته الاخرى : « ليس للانسان الا ما سعى » و « كن جميلا تر الوجود جميلا » و « الخط المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين » و « لكم دينكم ولي دين » و « لم يعش من عاش لنفسه فقط » . وهذه الشعارات وغيرها مفتاح لشخصية عبد الحميد وان كانت شخصيته منفتحة لا تحتاج الى مفتاح « ان احسنتم احسنتم لانفسكم » و « قيمة الانسان ما يحسنه ! » .

وكمفكر انساني ظل عبد الحميد يحارب الالتواء وجنون العظمة أنى كان مصدرهما ، وراح يبث تعاليمه في نفوس طلابه ، ويغرس فيهم روح الكرامة والانفة ومجابهة من حملهم غرورهم على ايذاء الاخرين واستباحة حقوقهم . ومن ابرز صفاته الاحسان الى الناس بما يقدم لهم من مثل ونصح بالاستقامة والترفع عن الصغار والزيف والتحليق عن الشر والاذى كأحسن ما يستطاع .

من آثاره القلمية : كتب عبد الحميد عشرات المقالات في التربية والثقافة والادب ، كما وضع وترجم بعض الاقاصيص ، واكتست فصوله صبغة من الاسلوب الرصين ، والتفكير العميق والاحاطة الشاملة . ودونك بعض ما صنف من آثار قلمية مطبوعة :

(١) أقاصيص : مجموعة قصص قصيرة ، طبعت بيافا عام ١٩٤٦

(٢).١ أقاصيص : مجموعة تضم المجموعة السابقة وغيرها ، طبعت بعمان عام ١٩٥٩ ،

(٣) العقل المنطلق : «مترجم» طبع في بيروت عام ١٩٦٠ ،

وخاتمة المطاف : ما ذكرت حكمة الكاتب الاميركي الراحل ارنست همينجواي وهي : « العمل الاخلاقي هو ما تصنعه ثم تحس بعده بانك سعيد ! » الا وذكرت معها عبد الحميد ياسين .

نماذج من نثره : كتب عبد الحميد مقالا بعنوان « هذه الشجرة » اتسم بالطابع الادبي الفلسفي ، ودونك ما كتب :

« في الشجرة حق وخير وجمال ، فيها مثل الحياة جميعا نماء وثراء وبهاء ! في الشجرة تتمثل حقيقة الحياة : من انبثاق وتفتح

ونمو وخلود . فهي تنبثق من اصل سابق ، ولا نوجد من عـدم يخطيء من يرى في نفسه القدرة على ايجاد شيء من عدم .

والشجرة تتفتح وتنمو بفضل ما ركب في طبيعتها من قابليـة النماء والتفتح ، وما تتناوله من البيئة من ماء وغذاء وهواء .

وهي بعد ذلك تنضج ، ثم تهرم وتشيخ ، لكنها تترك وراءهـا ذرية تخلدها . حتى ورقها وثمرها وخشبها ، وان جف وتناثر وانحل وتحلل ، فهو مادة تتنقل وتتغير ، لكنها لا تفنى . نعم ! في الشجرة تتمثل حقيقة الحياة الازلية المتطورة السرمدية .

وفي الشجرة كذلك يتمثل خير الحياة ، فهي تمنحنا نحن البشر، وتمنح الطير وغيره من الخليقة ظلها الظليل ، ونسيمها العليـل . وهي تنفعنا وتنفع غيرنا ، ثمارها اليانعة الشهية ، ولكنها لا تمن بالظل والجنى على أحد ، بل لا تدري انها تسدي معروفا الى احد . فهذا طبعها ، مذ كانت الاشجار . ولو درت ووعت وكان لها في الامر خيرة ، لاختارت ان تفصل ظلها على جسدها ، ولا تثمر الا مـا تاكل ، لعريت من ورقها حتى لم تظلل جسدها ، وعقمت حتى لـم تطعم نفسها ، فانتحرت بيدها وانقرض النوع كله . نعم في الشجرة خير الحياة ، خيرها التلقائي الطليق من كل قيد .

وفي الشجرة يتمثل ، غير الحقيقة والخير ، جمال الحيـاة أيضا . والجمال اشكال والوان وانغام وطعوم . فالشكل جميل تتناسب اجزاؤه معا ، وما اكثر التناسب في الشجر !

وهو جميل حين تستجيب الشجرة للريح والنسيـم بالتثني والرقص والتصفيق ، واللون جميل مريح في خضرته ، وتزيـده تلاوين الزهور رونقا وبهجة ، وحفيف الورق موسيقى عذبة ، وقـد تصحبها مزاهر الاغصان ، وعبق الزهور في الربيع له فعل الرحيـق المختـوم .

فان سأل سائل : لم الجمال، وهو لا يزيدنا فهما لحقيقة الحياة، بل لا يعطينا الحياة ولا يبقيها ؟ كان الجواب : ان الجمال ارتعاشات سعيدة تمنح الحياة قيمة فتصبح جديرة بان تعاش !

هذه هي الشجرة : مرآة الحياة ، تمثال الحياة بل بنت الحياة، وقد ورثت عن الام سجاياها الثلاث : فاخذت تنطق بالحق دون لسان ، وتصنع الخير دون تكلف ، وتشع بالجمال بلا تطبع .

هذه الشجرة التي نغرسها اليوم ، فيها معنى يشير التامل ، وامل يوحي بالجذل ، وقدسية توجب الخشوع ! »

وكتب عبد الحميد مقالا بعنوان « صفحة من مذكرات ديـك » بمناسبة صدور الطبعة الثانية من « مذكرات دجاجة » للدكتور اسحق موسى الحسيني ، تلك المذكرات التي خاطبت الدجاجة فيها الفراخ بقولها : « ليس لكم الا ان تنشروا في هذه الارض ، وتبشروا الخلق بالخضوع للحق وحده ، وتقنعوا الباغي بان بغيه يرديه ... سيحوا في الارض ، وتوزعوا بين الخلق ، وانشروا بينهم المثل العليـا ، والمبادىء السامية » .

ومما جاء في مقال « صفحة من مذكرات ديك » الذي كتبه عبد الحميد قوله : « ٢٣ - ٧ - ١٩٤٣ - يتنازعني اليوم فرح وحزن ، اما الفرح فلاني قد أصبحت لي رفيقة وشريكة في الحياة ، آنس بهـا وتانس بي ، وأبادلها العطف والحدب والرعاية . واما الحزن فللعظة التي سمعت جارتي تخاطب بها الفراخ عند الظهيرة ، ولرؤيتي اياهم - والشمس قد آذنت بالغروب - يغادرون البيت مودعين وكل منهم يمم شطرا .

لقد قالت جارتي الشيء الكثير عن الحق والباطل ، والعـدل والظلم ، والهدى والضلال ، فوعيته واستسغته ولكن لم أع ولـم استسغ انها وصفت تلك العائلة الطارئة ، التي فرضت عليهم فرضا ، بانها ضيف واجب الاكرام والرعاية ، ولم ادر كيف يجلو المضيف عن بيته ليقر فيه ضيف ثقيل !

كان جاري الفقيد ، مثل زوجه العاقلة المتفلسفة الشاعرة الرحيمة اللبيقة الفصيحة ، يؤمن بالمثل العليا ، ولكنه كان يضمنها الكرامة والحمية والحفاظ . كان عادلا منصفا لا يحب الظلم والعدوان ، ولكنه كان يدفع الظلم والعدوان بكل ما اوتي من قدرة وجلاد . كان يـرى ان الدجاج ، وهو اضعف من العمالقة لا يملك ان يعلمهم العـدل والرحمة والتسامح ، اذ حري بهم هم ان يحملوا لواءها وينشروه في الارض ، وقد كنت صنوه في هذا الرأي .

٢٥ - ١٢ - ١٩٤٨ - مسكينة تلك الفراخ التي هجرت بيتها ، ومسكينة تلك الدجاجة التي بقيت في البيت . اما العائلة الطارئة التي سكنته فلا أقول انها مسكينة . فالفراخ تجوب الارض داعية مبشرة ، تلتقط الحب أنى وجدته ، وتشرب الماء صفوا وكدرا ، فـلا تعدم ان تسمع شاكيا يقول انها تنازعه الحب وتعكر عليه الماء . مـا حيلة الفراخ في ذلك ، وهي لا تستطيع ان تشغل حوصلتها بالدعوة الى الخير ، ولا ان تروي ظماها بالتبشير بالمثل العليا ! لقد شغلتني تصاريف الحياة هذه السنوات الاخيرة ، حتى عن تدوين المذكـرات الذي هو اضعف الايمان .

يا لقسوة الحياة وما تحويه من جمود وجبروت ! نعم لقـد شغلتني عن متابعة ما يحل ببيت جاري الفقيد ، وما يصيب ابناءه الفراخ المشتتين في الارض ، اللهم الا ما يساقط الي من انبائه في الحين بعد الحين .

فمن هذه الانباء ان العائلة الطارئة تجري في البيت على سنن صاحبه الاصيل ، وتسلك فيه مسلك مالكه من الازل الى الابـد ، فتغير من معالمه ، وتستغل موارده ، وترفع فيه عمادا ، وتضرب فيه اوتادا ، كما تشاء وتهوى !

ومنها ان جارتي الزعيمة طالما رعت صالح تلك العائلة ، وكنت عونا لها على ما تبغي ، آملة ان يتبين لها وجه الحق والخير والعدل والرحمة يوما من الايام . ولكن هذا اليوم لم يات ولم يؤذن بالاقتراب، والزعيمة قد اعياها الجهد والهم ، وتقدمت بها السن ، فازدادت هزالا وعللا عن ذي قبل . ومن يدري فلعلها الان قد فارقت الحياة .

ومنها ان بعض الفراخ قد اعادوا النظر فيما هم فيه من تجوال وتبشير ، فاخذوا يفكرون في العودة الى البيت ، حتى ان واحدا منهم او اثنين قد جاءا بالفعل واتخذا موقعا قريبا منه مشرفا عليه ، لينفذا منه اليه ، حين يتبين صواب ذلك . ان التمييز بين المكاره ، واختيار أي منها ، تتجنب وأيها نواجه ونقتحم ، لعمل يجمع بـين البصيرة والشجاعة ، وهو من الفضائل . أما التهور ، والقاؤنا انفسنا الى التهلكة دون تبصر الامور ، فمن الرذائل ، ولكن مثله من الرذائل أيضا ان نتجنب المكاره جميعا دون تمييز !

هذه الانباء وهذه الاراء ، حين اضمها بعضا الى بعض ، تشق لي طريقا جديدا للفكر والعمل : الفكر في العودة والعمل عليهـا . وليت لي ان أوصل هذا الى الفراخ جميعا ! ليت لي ! » .

وكمرب نابه له مكانته الرفيعة في دنيا التربية يتوجه عبدالحميد الى الله ويبتهل بقوله :

« اللهم هبني يدا تعمل في بصيرة ورفق ، وهبني قلبا يفيض فهما وقوة ، وهبني عقلا عطوفا عاملا !

اللهم لا تجعل يدي مجرد اداة للتنفيذ ، ولا قلبي مجرد وعـاء للمشاعر ، ولا عقلي يركن لمحض التامل ، او يكفيه جمع الحقائق واستخلاص النتائج ! بل اجعلني اللهم انسانا ينسجم في كيانـه العقل والعاطفة واليد ، ليكون كل من العناصر الثلاثة هذه عونـا وتكميلا للعنصرين الاخرين . ان العون كله منك ، والكمال كله لك . انك على كل شيء قدير ، وأنت علام الغيوب ، وأنت الرحمن الرحيم ! »

## ٢ ـ حسن الكرمي

رأى نور الحياة في بلدة طولكرم بفلسطين وتلقى تعليمه الاولي في زمن العهد العثماني بمسقط رأسه ، ثم انتقل الى دمشق مع اشقائه وافراد الاسرة حينما تعين والده الشيخ سعيد الكرمي عضوا في المجمع العلمي العربي ، وهناك دخل مدرسة السلطاني أو مدرسة عنبر ، كما كانت تعرف في الاصل ، وأتم فيها الدورة الاستعدادية ، وشعورا منه بضرورة التعلم في مدرسة فلسطينية ، تمهيدا للعودة الى فلسطين ، بارح دمشق الى بيت المقدس في سنة ١٩٢٤ ودخل الكلية الانكليزية « كلية الشباب » وأتم تعليمه الجامعي فيها وحصل على شهادة البكالوريوس الفلسطينية في سنة ١٩٣٠ وتعين معلما في حكومة فلسطين وعلم في مدرسة الرمله وفي الكلية الرشيدية والكلية العربية بالقدس. وفي هذه الاثناء انتدب للدراسة في بلاد الانكليز للاختصاص بالتربية واصول الاحصائيات التعليمية ثم انتقل في سنة ١٩٣٨ الى ادارة المعارف العامة بالقدس ، وعند زوال الانتداب البريطاني عن فلسطين عرض عليه مركز كبير في القسم العربي في هيئة الاذاعة البريطانية بلندن فقبله وانضم اليه ،وأول مركز شغله هناك مركز المراقب اللغوي وظل خبيرا لغويا طول المدة ، واستفاد من خبرته باللغة الانكليزية في حقلي التعليم والترجمة فاخرج عددا من برامج تعليم الانكليزية بالراديو ، ولكن اهتمامه بالادب ساعده على اخراج عدد من البرامج المعروفة واشهرها « قول على قول » .

من آثاره القلمية : في هذه الاثناء عكف السيد الكرمي على اعداد قاموس انكليزي ـ عربي على اصول حديثة أسماه « قاموس لونغمنس Longman's Dictionary وقد انجز هذا القاموس وترجم كتابا بعنوان « خروج العرب من اسبانيا » وكتب المقالات العديدة في مجلات انكليزية مختلفة وفي بعض الموسوعات عن اللغة العربية والادب العربي والاسلام منها موسوعة « تشمبرز » وموسوعة « نيو وورلد » وله سلسلة مقالات بلغت عدتها اربعين مقالة في الفلسفة بعنوان « طبقة الفهماء » نشر اغلبها في مجلة « الاديب » وستنشر في كتاب كما ستنشر سلسلة « قول على قول » في ثلاث مجلدات و « حياة قط » في كتاب مستقل .

ويتميز الاستاذ الكرمي باللغة بصورة خاصة وبالفلسفة عامة ، والناحية المعجمية هي الغالبة عليه .

نموذج من نثره : « أقول في البلاد الاخرى ، والاحرى بي ان أقول في البلاد العربية ، فان الناس في هذه البلاد يقسمون القطاط قسمين : قطاط أهلية وقطاط برية . والقطاط الاهلية على قسمين : قطاط تعيش في البيوت منعمة مرفهة ، وقطاط تعيش في الشوارع والازقة بلا مأوى ، تنام على أبواب البيوت يطردونها أينما وجدوها ، ويضربها الاولاد كلما أحبوا . وقد كنت أرى بام عيني كيف ان بعض غلاظ القلوب من الاولاد وغيرهم ، اذا ظفر بقط او قطة من هذه القطاط ، كان يمسكه من ذنبه ويلوحه مرة او مرتين ويضرب به بحائط او صخر ، ولا يزال يفعل ذاك حتى يقتله او يتركه اقرب الى الموت من الحياة ، دون ان يجد هذا القط المنكود الحظ معترضا من الناس على هذه الفظاعة او نصيرا من هذه الفعلة الشنيعة وامثالها . ونصيب أمثال هذه القطط الموت جوعا او بردا أو بيد مجرم من مثل هؤلاء المجرمين .

وقد كنت دائما ولا أزال شديد الشفقة على القطاط لسبب نفساني من جهة ، ولكثرة ما كنت اشاهد من ألوان التعذيب والتجويع والتشريد من جهة اخرى . وأذكر انني كنت في زيارة لمدينة مراكش في المغرب العربي في شتاء ١٩٥٨ ، فمررت في أحد الشوارع فوجدت قطة سوداء هائمة في الطريق على أشد ما تكون من الهزال والضعف ، تترنح في مشيتها لقلة ما في جسمها من قوة ولشدة ما بها من جوع ، كانت تسير وهي في هذه الحالة تبحث عن شيء تأكله فلا تجد شيئا . رأيتها فوقفت أرقبها مدة وانا اشعر بالالم في نفسي لهذه المسكينة ، وعمدت الى صاحب دكان هناك وقلت له : « يا سيدي ، اترى هذه القطة المسكينة ؟ » فقال : وما بالها ؟ » فقلت : « أترى كيف انها تبحث عن شيء تأكله ولا تجده ؟ » فقال : « اكثر القطاط يا سيدي على هذه الحالة ! » فقلت : « ولكنني لا استطيع ان اسعف هذه القطاط كلها في هذه المدينة ، وانما اريد اسعاف هذه القطة بعينها !» فقال : « وماذا تأمر ؟ » فقلت : « أدفع لك شيئا من المال ، وارجو ان تشتري به كل يوم شيئا تأكله هذه القطة الى ان تستعيد صحتها وقوتها ، ولعلها حينئذ تقوى على تدبير امرها بعد ذلك ! » فأخذ المال مني ووعد بان يفعل كما طلبت ! »

نموذج من شعره : قرض الاستاذ الكرمي الشعر كما قرضه والده المرحوم الشيخ سعيد الكرمي وشقيقه « آبو سلمى » وله في هذا المضمار ومضات وشطحات منها الابيات التالية وقد نظمها في غربته ببريطانيا ، وفيها تذكر لفلسطين موطنه المغصوب :

انا على العهد مهما شت نائينا    وأوسع الدهر حبل الوصل توهينا
وأمعنت صور الاحداث ضاربة    اطنابها لتزيد الخطب توهينا
فلا البعاد مزيل ما بانفسنا    ولا التنائي بماح بعض ما فينا
أرض أنيطت بها يوما تمائمنا    وفي الصبا قد اميطت عن تراقينا

نحن شوقا الى تلك الربوع كما    يحن الف لالف فاته حينا
ونبعث الرسم تخييلا عسى أثر    في الذهن عن رؤية الاعيان يكفينا
حتى الحقيقة ما أشفت لنا غللا    فكيف أخيلة تروي وتشفينا
فلا الجبال جبال النار نعهدها    ولا الاراضي بها شبه لوادينا
ولا الملامح في الاشخاص نعرفها    كانما الناس ليسوا من آناسينا

## ٣ ـ برهان الدجاني

القاعدة الذهبية التي سار عليها « برهان » ودرج منذ حداثته : « لا معنى للحياة بدون كتاب » ولو دخل « برهان » الجنة ولم يجد فيها مكتبة لصاح من توه : « أجنة بغير كتاب ؟ » .

ولد برهان في يافا بفلسطين عام ١٩٢١ وأكمل دراسته الثانوية في العامرية بيافا ثم انتسب للجامعة الاميركية في بيروت ، ونال بكلوريوس في العلوم عام ١٩٤٠ فاستاذا في العلوم عام ١٩٤٤ وانضم الى المكتب العربي بالقدس عام ١٩٥٤ وعمل فيه بكل جهد وطاقة (١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ ) . وخلال اقامته في بيت المقدس درس الحقوق ونال دبلوما من معهد الحقوق الفلسطيني عام ١٩٤٨ .

وبعد حلول النكسة الفلسطينية الاولى وتوحيد ضفتي الاردن نال من السلطات الاردنية امتياز جريدة باسم « الهدف » وصدر العدد الاول منها في بيت المقدس يوم ١٧ شباط ١٩٥٠ وأقبل على معالجة القضية الفلسطينية باسلوب علمي متين .

وسرعان ما طلق برهان الصحافة وانضم الى القطاع الاقتصادي وعين عام ١٩٥١ امينا عاما لاتحاد غرف التجارة والصناعة والزراعة للبلاد العربية فاستاذا للاقتصاد في كل من « الاكاديمية اللبنانية » و « الجامعة اللبنانية » و « جامعة بيروت العربية » و « الجامعة الاميركية » في بيروت .

من آثاره القلمية : بعد ان مل « برهان » السياسة آمن بأن البلاد العربية في حاجة ماسة الى تطوير اقتصادي فاقبل على التاليف في هذا القطاع ايمانا منه بان لغة الارقام افصح من لغة « البحتري » و « أبي تمام » ودونك بعض آثاره المطبوعة :

(١) الاقتصاد العربي . طبع في عام ١٩٥٧ .
(٢) محاضرات عن التنمية الاقتصادية للاردن . طبع في عام ١٩٥٧
(٣) تحليل بعض أوجه العلاقات الاقتصادية بين البلاد العربية . طبع في عام ١٩٦١ .
(٤) العلاقات الاقتصادية في الدول العربية . طبع في عام ١٩٦٥

نموذج من نثره : عالج برهان القضايا والشؤون الاقتصادية والسياسية كما كتب في القصة القومية القصيرة التي هدف منها الى التوعية وبث روح الشجاعة والصبر على عوادي الايام في نفس النشء الفلسطيني ودونك قصة كتبها بعنوان « البيت الحزين » .

« لو سألت أي رجل في يافا ان كان يعرف محمد ابو خالد لأجابك قائلا : « لعلك تعني صاحب البيت الاخضر ؟ » فقد استقر في اذهان الناس جميعا ان هذا الرجل وبيته كائن واحد لا يتجزأ ، وحل لقب صاحب البيت الاخضر محل ما تعارف عليه الناس من مناداة الرجل بكنيته او باسم عائلته . ولست اعرف اول رجل فهم بشعور غريزي هذه العلاقة الغريبة بين هذا الانسان : الكائن الحي العاقل ، وبين بيته الحجري . ولعله في اللحظة التي أطلق فيها ذلك الرجل اللقب على محمد ابو خالد كان هنالك اشخاص آخرون قد ادركوا الشيء نفسه فوجدوا في اللقب وصفا صحيحا لما كانوا يحسون به بينهم وبين انفسهم حول هذا الرجل . فقد كانوا كلما تناولوا محمد ابو خالد بالحديث اسرعوا الى القول بانه رجل شاذ ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون وصفا دقيقا لما انصرف اليه شذوذه ، الى ان وجد بينهم من دعاه ( صاحب البيت الاخضر ) فوجدوا في اللقب رمزا للغامض المجهول في هذا الرجل واجمعوا على اطلاقه عليه .

وقد عرفت محمد ابو خالد معرفة تامة وجمعتني به صداقة قوية ومحبة ثابتة . عرفته قبل ان يكون صاحب البيت الاخضر ، ومع ذلك لو سألني عنه اي انسان لاجبته على الفور « لعلك تعني صاحب البيت الاخضر ؟ » ولعل هذا السؤال يخرج مني انا ايضا بفعل الغريزة وبدون تفكير او قصد . فلست اعرف لقبا ينطبق على صاحبه كما ينطبق هذا اللقب على محمد ابو خالد . وقد قلت له في يوم من الايام ممازحا : اتعلم ان من يعرفون اسمك في يافا قليلون ، ولكن ليس في المدينة كلها شخص واحد لا يعرف «صاحب البيت الاخضر»؟. فابتسم لهذا الحديث وقال لي في هدوئه ووداعته « انهم في ذلك على حق ، وان هذا اللقب الذي يطلقونه ليعبر في الحقيقة عن اعماق ما في نفسي » . انه يصفني بشكل ابعد غورا مما يفهمونه منه . اتدري ما احبه من هذا اللقب. احب كلمة ( صاحب ) . بالطبع يفهمها الناس على انها تعبير عن التملك والتصرف ، ولكنني افهمها انا بمعنى الصحبة والصداقة والزمالة ...

نعم يا اخي انا صاحب هذا البيت لانني احبه ، وآنس اليه ، واطمئن في ارجائه . ولا اعترف باي نوع آخر من الصحبة بيني وبينه » « وسكت طويلا ، وبدا على وجهه صفاء جميل ، وتاهت عيناه كانه يحدق في شيء بعيد ويتملى من حقول من الجمال قد حجبت عني ، ثم قال « ليس غريبا ان يعبد الانسان ربه داخل البيوت . لقد بنى الانسان المعابد والهياكل ، ثم الكنائس والمساجد ، وانفق فيها من الجهد والمال ما لا يوصف ، ليعبد الله في داخلها ، بل لقد سماها بيوت الله ... وليست هذه التسمية نوعا من العبث ، او سقم الخيال ، بل هي تصيب الحقيقة في الصميم ... انني اشبه الروح الالهية بطير لا يتعبه الطيران فيظل محلقا في السماء الى ان يرى مكانا جميلا يستحق ان يهبط فيه ، فينزل من عليائه ولا يرتاح فهو لا يتعب ولا ياكل او يشرب فهو لا يجوع ولا يعطش ولكن ليضيف الى ما اعطاه من الجمال قداسة خاصة بحضوره المباشر فيه ... وقد بنيت المعابد الجميلة رائعة ليسكنها الله من قداسته » .

اما البيت الاخضر الذي عرف به صاحبه ، فهو بيت صغير جميل يقع على مرتفع من تل الريش خارج مدينة يافا بقليل . وقد عرفت محمد ابو خالد لاول مرة عندما التقيت به صدفة على ذلك التل ، وقبل ان يبني بيته المشهور ، وما زلت اذكر ذلك اليوم . فقد الحت علي نفسي بالخروج من المدينة ، فسرت بين بياراتها مخترقا سكنة درويش الى ان وصلت الى ذلك التل الجميل . وكان اليوم رائعا .

ووقفت في اعلى نقطة من التل اسرح نظري ببطء في مجالي الطبيعة تلك اشجار البرتقال الجميلة تفصل بيني وبين يافا ، وذلك هو البحر الذي يبتدىء بلونه الازرق الصافي عند نهاية الاشجار . وفي وسط هذين اللونين الرائعين ، كانت هذه المدينة الوديعة تربض . وأخذت اتابع بنظري شوارعها ومساكنها التي اعرفها حق المعرفة : ذلك شارع النزهة ، وهذا شارع العجمي، وهناك شارع الحلوة. تلك هي البصة، وذلك مستشفى الدجاني، وهذا دير الاقباط. وقلت في نفسي ان هذا المكان لم يخلق الا ليبنى فيه بيت يطل على هذا الجمال، ونظرت حولي، فاذا رجل يبدو عليه انه غارق في تامل ما يحيط بهذا المكان . وحياني بشيء من الخجل ثم قال وكأنه يقرأ ما يجول بفكري : « الا ترى ان هذا المكان لم يخلق الا لبيت يطل على ما حوله من جمال ؟ » قلت بلى ، قال : « هنا سأبني ذلك البيت » ، « انني لا افهم لماذا لم ينتبه لهذه البقعة احد من قبل ، فليس فيها الان مسكن واحد ... على اي حال هذا من حسن حظي ، فلو كانت مكتظة بالمساكن لما جئتها » قلت له « لعل سبب ذلك ان جمال هذا الكون مختلط في ذهن الناس ، بذكريات أليمة واساطير غريبة » قال « وما تلك ؟ » قلت « ان الناس يعتقدون ان تسمية هذا المكان بتل الريش انما هي تحريف لاسمه الاصلي وهو تل الرؤوس . والاسم الاصلي هذا اكتسبه التل عندما احتل نابليون مدينة يافا وأسر حاميتها المؤلفة من خمسة الاف جندي تقريبا وجاء بهم الى هذا التل واجهز عليهم ودفنوا في ارجائه . ويقول الناس ان الارواح الهائمة لهؤلاء الشهداء الابرياء ما زالت تسمع متجولة في هذا المكان ، وما زال آتيها يبعث الرهبة والخوف » ولاحظت اجفاله من هذا الحديث وامتعاضه منه . ووبختني نفسي على التكلم بهذا الشكل بعد ان اخبرني الرجل عن عزمه على بناء بيت لنفسه هناك ، فقلت مستدركا ومسليا « انما هي اساطير سخيفة وما قصدت به سوى مجرد الكلام ... ولكني اعتقد ان السبب الحقيقي لخلو هذا المكان من المساكن هو بعده عن المدينة وعدم وجود طريق جيدة او وسائل للمواصلات تصل بينه وبينها » . وافترقنا زمنا .

واقبل على بناء البيت بنشاط لا مثيل له وكان يطلعني على كل خطوة يقوم بها في هذا السبيل . وضع تصميم البيت بنفسه وقد فسر ذلك لي بقوله « انما البناء نوع من الخلق والابداع ، يتمشى مع فكرة معينة . فان وضع الفكرة غيرك فهو ليس خلقك ولا ابداعك ، ولكنه خلق ذلك الاخر . والبيت الذي تصممه بنفسك أحب اليك وأملا الى ما في قلبك من فراغ .. مثله مثل ابنك فقد يكون اقل جمالا ونجابة من ابناء سواك ، ولكن له ابدا في نفسك موقعا خاصا .

وعندما شرع في البناء اخذ يشترك فيه بنفسه : يخطط الغرف ويعين المواقع، يجبل الطين ويحمل الحجارة ، ويراقب كل شيء بنفسه. وكان يفعل ذلك مزهوا سعيدا ، ويفسره بقوله ان العمل هو اشرف ما في الحياة . هو ليس ضرورة للعيش فقط بل هو ضرورة نفسية واخلاقية لان به يؤكد المرء ثقته بنفسه ومنه يستمد كثيرا من كبريائه .. ثم ان العمل خلاق وليس في الحياة بهجة كتلك التي يشعر بها الانسان عندما يوجد شيئا من العدم ، فالانسان به قبس الهي ، ومن اهم صفات الله انه خالق ، ومن هذه الصفة تجد الانسان يتحرق نزوعا للخلق والابداع تشبها بالقوة الالهية التي اوجدته .... والخلق يتبع الفكرة الحية ، فهي تضع المثال والتصميم ، ثم تخلق شوقا لرؤية هذا التصميم متحققا في الواقع ، فتتحرك القوة الانسانية الكامنة كلها لتحقيق الفكرة وتجد النفس فرصا عظيما كلما رأت العمل متجها نحو تحقيقها .

وتم بناء البيت ، وما عرفت في حياتي بيتا اجمل منه تصميما ولا اكثر ملاءمة للموقع الذي أقيم فيه ، عندما نظرت اليه لاول مرة بعد اتمامه قلت في نفسي « لقد كان هذا التل الجميل كقاعدة التمثال التي لم تتوج بالتمثال الذي اعدت له ، فظلت ناقصة مشيرة الى ما فوقها

من فراغ . وقد جاء هذا البيت كالتمثال المنتظر من زمن بعيد » لقد كان آية في كل شيء . ودعاني الى زيارته فذهبت وجلسنا للحديث وقال لي « ان الناس يتوهمون حينما يعتقدون ان المحبة لا تكون الا للبشر . ففي وسعك ان تحب كل شيء فيما حولك مما جعله الله . وقد ينفرد بحبك شيء واحد بينك وبينه صلة خاصة كشجرة وحيدة في سهل واسع او غدير معين او مكان خاص .... ولا شـك في ان الحب يكون اعظم عندما يكون الشيء الذي تحبه من صنع عقلك وخيالك ويديك .. اما انا فان محبتي منصرفة الى هذا البيت الذي تراه .. وقد تضحك مني ولكنني كثيرا ما اتخيله كائنا حيا يبادلني حبا بحب وعطفا بعطف . كثيرا ما اتصور الابواب والجدران تبتسم لي ، كثيرا ما اتخيل الموقد تسرى عني وتشجعني ، كثيرا ما يدور في خلـدي ان الشبابيك تعتني بي وتهتم بصحتي » .

قلت له متفلسفا ، او محاولا مجاراته على مستوى تفكيره وخياله « انني استطيع ان افهم تماما محبة الانسان لما هو ليس بشرا ، وانـي لأروي لك على سبيل المثال حادثا وقع لي شخصيا . فقد كان عنـدي فرس في غاية الجمال والاخلاص . ابتعتها وهي رضيع وربيتهـا ، واعتنيت بها بنفسي ، تماما كما كنت تفعل مع بيتك . ودللتها كما دلل هذا البيت ، وكنت احدثها واتوهم انها تفهمني ، وأفسر حركاتها انها اجابة لكلامي . وكلما كبرت دربتها وصرت اذهب بها كل يـوم في نزهة طويلة ، ويخيل الي انها صديق لي يشعر معي ويشاركني فيما يمر بي من عواطف وخواطر » .

فبان عليه السرور وقال مبتسما « واين فرسك الان ، فاني احب ان أراها ؟ » قلت « لقد ماتت ، او بالاحرى لقد قتلتها بيدي ، ففي احدى المرات بينما كانت تعدو انزلقت رجلها في حفرة مخيفة فانكسرت ، ولم يعد بد من اتلافها لان بقاءها لا يفيدها بشيء ، بل يعني استمرار آلامها ولا امكانية مطلقا لشفائها .. ما زلت اذكر الي الشديد لما حل بها وتصميمي على اتلافها بعد لهفة وتردد . ما زلت اذكر كيف وضعت المسدس على جبينها وخيل الي انها فهمت كل شيء ونظرت الي نظرة صفح وتضحية .. ثم اطلقت الرصاصة فخرت على الارض وانتهى كل شـيء » .

كنت مندفعا في تلاوة القصة فلم الحظ ما كان يرتسم علـى وجهه من الم .. ولكنه فجأة جفل ، تماما كما فعل يوم أخبرته عـن قصة نابليون وادركت عندها انني اخطأت للمرة الثانية ، فحاولـت ان اصلح خطأي وقلت له « هذا هو الفرق بين التعلق بالاشياء الحيـة والاشياء التي لا حياة فيها . فالاولى تتلف ، اما الثانية فانها تبقى ما بقي صاحبها ، بل تلازم اجيالا واجيالا » ولكنه كان متجهم الوجه فلم يجب بشيء . وجاءت الحوادث الاخيرة ، فاذا المكان الذي يقع البيت الاخضر فيه اهم موقع للدفاع عن يافا . واذكر انني كنت أسير بعد ابتداء الحوادث ببضعة اسابيع فاذا رجل مشعث الشعـر يلبس اردية المناضلين يناديني ، ولم اعرفه بادىء الامر ، ولكن عندما اقتربت منه وجدته صديقي صاحب البيت الاخضر . قال لي « ها انت لـم تعرفني بملابس الميدان ، ولكننا نحارب ، وننصد العدو ، ونلقي بـه افدح الخسائر . لقد تغير شكله ايضا وهو اليوم مثلي يرتدي ملابس الميدان » وكنت تائه الفكر مشغولا بأمور اخرى فلم افهم لاول وهلـة ما يعني وقلت له « من هو ؟ من تعني ؟ » فاجاب ضاحكا « البيـت الاخضر ، أنسيت ؟ انه يساوي خمسين مناضلا . انه لبيت شجاع » .

ومرت الحوادث بسرعة لا مثيل لها ، وخرجت من مدينة يافا بعـد ان فقدت الامل في امكان حمايتها والدفاع عنها ، ونسيت امر صديقي محمد ابو خالد في تلك العاصفة الصاخبة من الحوادث والعواطف . وكنت مرة اسير في احد شوارع بيروت فاذا به وجها لوجه امامي . وكان يبدو عليه الم شديد يشبه اليائس ، بل يزيد عنه . سلم علـي واقتادني الى مقهى غير مطروق واخذ يحدثني عن آلامه وهمومه . قال

« كم كنت احب لو بقيت في بيتي ، واستمررت ادافع عنه الـى ان يتهدم فوقي فاموت معه وأدفن بين انقاضه . لكنهم قالوا لي بـان المسالة لا تتعدى ، لا تلبث الجيوش العربية بعدها ان تدخل المدينـة وتعيدها الينا .. لقد تركت بيتي وودعته وأكدت له انني سأعود بعـد بضعة ايام ، بعد اسبوعين او ثلاثة على الاكثر ، ولكنه لم يكن مقتنعا . كان ينظر الي نظرة الم وعتاب ، وكأنه كان يسألني لماذا اوجدته مـن العدم ما دمت سأتركه . ولكنني كنت كالمخبول فلم افهم شيئا .. بـل قل انني كنت انانيا جبانا . فقد فكرت بنفسي فقط ولم افكر فيـه . فكرت بكبريائي فخفت ان يشلها العدو المنتصر ، وفكرت بشرفي فخشيت ان يمسه العدو النشوان .. ولكن غاب عني ان كبريائي وشرفي هما في ذلك البيت الذي تركته . غاب عني ان تمرغ العدو في بيتي انما عار متجدد يلحقني في كل يوم وفي كل ساعة . انني لاتصورهم يجولون في الاماكن التي كنت اعتبرها رمزا للقداسة والخشوع يرسلون فيهـا القهقهات السافرة ، ويدنسون ارجاءها بعهرهم ... واني لاتصور هـذا البيت الطيب الصديق متألما عاتبا . واني لأعلم الان ان بقاءه لا يفيده في شيء بل يعني استمرار آلامها وزيادتها » . وسكت طويلا فلم أجرأ ان اقطع السكون مخافة ان أزيد في تهيجه وآلمه ثم قال فجأة « هـل قلت بأنها فهمت كل شيء ونظرت اليك نظرة صفـح وتضحيـة » . وأصابني قلق شديد ، فاني لم افهم ما كان يرمي اليه صديقي ، وخشيت ان يكون عقله قد اختلط وقلت له باستغراب « من هي ؟ ماذا تعني ؟ » فقال بهدوء ، كأنه فهم خشيتي واراد ان يطمئنني « انما قصدت فرسك التي كسرت رجلها وقتلتها بيدك : الم تحدثني عنها يوما ؟ » قلت بلى » وسكت ، وافترقنا ، وكان ذلك آخر عهدي به .

قيل لي بعد ذلك بأن راديو اسرائيل اذاع بأن مجهولا تسرب مـن المنطقة العربية ونسف بيتا في تل الريش على من فيه من السكـان اليهود ، وانه وجدت بين الانقاض جثة شخص يعتقد انه هو الجاني » .

عمان ـ الاردن — البدوي الملثم

## صراخ

الازهار البالية في زاوية الجدار
سخرية اللامتناهي المرعب
في شلالي المتجمد
يلتهم الحياة ، يمضغ قلبي .
الهوة ... الهوة !
حينما اجر اذيال ضجري ...
اتوق الـى اللاشيء
التلاشي في سبات عميق
وفي حضرة الوحدة السوداوية استيقظ
كل شيء يهرب ، كل شيء يئن
كل شيء يسير في احضان الريح
آلاف الافكار النائمة تصرخ فجأة
وتضيع برعشة حنين كل المثل

حلب — هناء الطيبي









مهداة الى الاستاذ الزيات مترجم «آلام فرتر»

**بقلم محمود الشرقاوي**

في ليلة من ليالي هذه الايام الاخيرة من ديسمبر ، أيام الوداع والرجاء ، وداع عام مضى ورجاء عام جديد ، جلس انسان وحده في حجرة باردة ، طقسها بارد ولكنها حارة الذكريات .

انسان وحيد جلس يكتب فلم يستطع ، ما يحسه قلبه لا يستطيع ان يكتبه ، وما يكتبه يجده بعيدا غريبا عما في قلبه وصدره . ما يكتبه يجده باردا كصورة الحريق واللهب والبركان على قطعة من الشمع الملون ، وفي شعر هندي يقال : « مات المعنى الحي حين احتواه اللفظ » . وفي الانجيل يقال : « ينطق اللسان فضلة ما في القلب »

**انه يجلس الى الراديو يدير** مفتاحه ، ينتقل به من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب ، فلا يسمع الا الرقص والغناء والموسيقى . الاحاديث لا يسمعها ، يمر عليها في مفتاح الراديو ، كما يمر الشهاب في السحاب .

الدنيا كلها تغني وسط هذه المذبحة البشرية ، والناس كلهم يرقصون على دقات «الجاز» الصاخب وعلى انغام الفالس الهادىء الناعم كأحلام الصفاء في آخر الليل ، وبعض الناس في هدوئهم وسمت وقارهم وصفاء قلوبهم ينشدون ويرتلون . اولئك هم المتوجهون الى الله في السماء .

ايها الصاخبون الراقصون على الجاز والفالس ، خذوني معكم . انا انسان وحيد غريب في هذه الدنيا . انسان يريد ان يعيش وان يعرف الحياة وان ينطلق بعد حبس طويل . يريد ان يفرح ويقفز ويبتهج كما تفعلون . ثم يلقي جسمه المنهوك في الفراش بعد المرح الطويل فينام وقد حل في قلبه السلام .

ايها المؤمنون الخاشعون المرتلون المتوجهون الى الله في السماء ، خذوني معكم . انا انسان يريد ان يهدأ وأن يعيش وان يهب قلبه الصفاء والنقاء بعد سواد طويل ، يريد ان يتوجه الى الله يتأمل ويصلي ، قد انصرفت عنه دنياه ويئس منها ، يحبها ويريدها ولكنها لا تريده . قد أشقاه ادبارها ولم تقبل عليه مرة ، فهو يريد أن يعلو عليها يأسا منها ، وان يتوجه الى ربه مثلكم يرتل ويتأمل ويصلي ويتبتل حتى ينهك جسمه كما انهك الرقص جسوم الراقصين فينام وقد حل في قلبه السلام .

انه يسير في الطرقات ويركب ما يركب الناس ، فيجد الشاب والفتاة والعجوز والصبي كل قد امسك هدية لمن يحب قربان حبه ، الورود والازاهير يحملونها يضمونها الى صدورهم ضمة العشق .

ويرى الناس قد اذهلهم الشقاء واستولى عليهم جهد العيش فلا يتحدثون ولا يفكرون آلا فيما يأكلون ويكتسون ، ليس لهم حبيب ولا يريدونه ، ليست لهم زهور ولا قرابين ولا يريدونها .

ايها العاشقون السعداء يحملون الهدايا ، خذوني معكم .

انا انسان وحيد يريد ان يهدى الى أحب شيئا ، يهدى اليه قلبه وحنانه وحبه وحاضره كله ومستقبله كله .

بلى . **لقد أهدى الي من احب هذا** كله وفوق هذا كله ، ولكن من احب لم يقبل منه ما أهدى ، **وطرد الرسول وانصرف عنه كما انصرفت** عنه دنياه ويئس منه ... من حبيبه ... **انه يحبه ويريده** ، ولكنه لا يريده .

قلبه وحنانه وحبه وحاضره كله ومستقبله كله ، لا يريده ، وفوق **هذا كله لا يريده** .

ايها الحاملون الهدايا والازاهير الى عشاقكم ومحبيكم وازواجكم ، خذوني معكم .

اني اريد ان اكون واحدا منكم فأقدم الى حبيبي خيرا مما تقدمون ... مع قلبي وحناني وحبي ، فاذا رضي عن هديتي وتقبل قرباني ملأ قلبي الفرح وشمخ راسي فوق كل راس ، واتعبني حمل السعادة فأنام وقد حل في قلبي السلام .

ايها الاشقياء التاعسون : خذوني معكم .

**انا انسان وحيد اريد ان أعيش** ان أيتئس وان أشقى **حتى أذهل** ، وحتى يموت في قلبي الرجاء من كل شيء والامل في كل شيء ، وان يستولي علي جهد العيش والفكر فيما آكل وما اكتسي حتى يرهق جسمي الفكر والجهد فأنام وقد حل في قلبي السلام .

رايتكم من قبل في كثير من مثل هذه الايام الاخيرة من ديسمبر ، ايام الوداع والرجاء .

رايتكم من قبل ايها الراقصون والمرتلون والعاشقون والذاهلون بالشقاء فلم اطلب ان اكون منكم لاني كنت أوقن اني سأكون خيرا منكم عندما تقبل علي دنياي .

دنياي كانت اخي الغائب حتى **يعود، والقلب الذي رجوته واصطفيته** وأحببته وارتقبته ، وصبرت على ما لم يصبر له الصابرون حتى يكون معي ، حتى يكون لي وحدي .

# أنا وأمسي وغدي

وليـال وسنين
مثقلات بالحنين
كـان فيهـا شاهدي
أنجم ترعى بليل كضمير الحاقد
لآلأت وانطفأت

واختفت خلف غلاف جامد
بين أفق ، وضباب ، وسكون
ودجـون
فدفنـا
انـا والامس بقبـر واحد

قلت للدهـر
هنـا يـا قاتلي
فوق هـذا الساحل
قذف الموج بقايـا قارب
لم يجد نجما به قد يهتدي

فوق لـج غاضب
ففرقنـا
انـا والامس ، ولم يسلم غدي

ومضت بضع سنين وليالي
وأنـا
وأنـا الميت هنـا
اختفي خلف ظلالي
قد جعلت الغد تابوتا وأمسي كفنا
لسـت أدري
أأنـا الراقد هذا ام خيالي

قـد أضعنا كـل شيء
وفقدنـا الزمنـا
والصبـا
والوطنـا

بغداد — صفاء الحيدري



وكنت في سنوات كثيرة اجلس في هذه الايام الاخيرة من ديسمبر واسمع واري مواكب حياتكم ايهـا السعداء ، فأبتسم ، ستقبل دنياي وأغدو خيرا منكم يوم يعود لي اخي البعيد ، ويوم يكون القلب الحبيب لي وحدي .

ثم جاءت الايام الاخيرة من ختام هذا العام ، فاذا الاخ البعيد لم يعد، ولن يعود ، واذا القلب الحبيب قد رد علي — مطرودا — قلبي وحناني وحبي ، واختار ان يكون لغيري ، له وحده ، واني احبه وما كرهته .

في هذا العام اجلس وحدي فـي غرفة باردة ، طقسها بارد لكنها حارة الذكريات ، اسمع واري مواكبكم ايها السعداء ، ولكني لا ابتسم . لـن اكون في يوم ما خيرا منكـم ولا واحدا منكم ، ان اخي لن يعـود ، والقلب الحبيب لن يعود ، فلن تعود لي دنياي . وما كانت دنياي لي حتى تعود .

انسان وحيد في العيد

كان يسير في ركب الحياة معـه اخوه وحبيبه ... زوجتـه ... لا يريد غيرهما ولا يرجو ، فسقط اخوه والركب يسـير . فتخلف بقضي حقه يواريه ويبكيه ، وقلبه يتوجه الى حبيبه الذي بقي يرجـوه لا سـواه .

يتوجه اليه بالرجاء والعـزاء ، يريده وحده لا يريد غيره ولا يرجو. وماذا يهمني من الركب وليس لي فيه ... ؟

— انه القلب الذياحببته — معي. وانا به مع الركب وامامه أسبقـه واعلو عليه . ونحن وحدنا القافلة والركب والحياة والدنيا لنا ، انـا — معه — غني عن جميع الناس .

انني به غني عن العالمين .

فلما أفاق وقضى لاخيـه بعض حقه تلفت فاذا الحبيب الذي كـان بقي . ما بقى ... ! سلك بنفسـه في زحمة الحيـاة وخلف القلب الوحيد لا رجاء ولا عزاء . وشـق الطريق لذاته لم يتلفت .

الركب بعيد ، وهو منـه منفرد وحيد . ما بقيت به قـوة وليس حولـه سوى الظلام والوحشـة والاحزان وذئاب الطريق ، وفي قلبه الحسرات الباقيات ولا احد معه .

ايها السعداء الذين أرى مواكبهم وأسمع رقصهم علـى « الجـاز » الصاخب و « الفالس » الهـادىء الناعم كأحلام آخر الليل ، والذيـن يقضون هذه الايام الاخيرة من العام ، أيام الوداع والرجاء ، ثم ينامـون وقد حل في قلبهم السلام .

خذوني معكم .. !

مصر الجديدة — محمود الشرقاوي



عيسى الناعوري

# بين الفكر العربي والاسباني

بقلم عيسى الناعوري

* * *

في اعتقادي ان اختيار مدينة قرطبة مقرا لعقد هذه الدورة السادسة لابحاث الثقافة العربية الاسبانية ، لم يكن الا تكريما لهذه المدينة التي ساهمت مساهمة كبيرة في حضارة الفكر الاندلسي المشترك ، والتي كانت يوما من المراكز الكبرى للثقافة في العالم ، وهي اليوم احد مراكز الثقافة العصرية ايضا .

لقد كانت هذه المدينة اول مركز للثقافة العربية الاسلامية في الاندلس ، وظلت على ازدهارها الفكري طوال الفترة الاولى من الفتح الاسلامي . فلما قامت فتنة البربر في اوائل القرن الحادي عشر الميلادي ــ الخامس الهجري ــ قضت هذه الفتنة على ازدهار قرطبة وعمرانها . ومن هناك تفرق علماؤها وشعراؤها ومفكروها ، وانتشر ما كان في قصورها من نفائس الكتب ، فكان ذلك عامل نهضة وازدهار فكري في سائر انحاء الاندلس : في طليطلة ، واشبيلية ، وبلنسية ، وغرناطة ، ومرسية ، ورندة ، وفي كل جهة اخرى .

في هذه المدينة ، وفي معاهد الثقافة فيها ، ظهر وتتلمذ عدد غفير من ابرز مفكري الاندلس وعلمائها : زرياب وابن حزم ، وابن مرة ، والغزال ، وابن شهيد ، وابن زيدون ، وابن عبد ربه ، وابن رشد ، والكثيرون غيرهم من أهل العلم والادب الفلسفه . وبهذا حملت قرطبة مشعل الثقافة فترة غير قصيرة ، حين كانت اوروبا ما تزال تنتظر فجر الانبعاث العلمي والحضاري .

ليس من شك في ان فترة الحكم العربي في اسبانيا ــ رغم كل ما يمكن ان يقال فيها ــ كانت خيرا ونعمة على الغرب بأسره ، وقد جعلت من اسبانيا وعاء ثمينا تنصب فيه حضارة الفكر ومدنية المجتمع ، كما جعلت منها جسرا عظيم الاهمية لنقل الثقافة والمدنية الى اوروبا . لقد كانت اسبانيا حينذاك يدا تتلقى العطاء الحضاري سخيا رخيا ، ويدا اخرى تمتد بدورها بالعطاء السخي الرخي الى الغرب بعد حين . فأوروبا كلها مدينة بنهضتها لاسبانيا : فهي القاعدة ، وهي المنطلق الاول للنهضة الغربية .

وانه لمن حق اسبانيا أن تنظر باعتزاز قومي الى تلك الفترة من تاريخها ، وان تعتبر كل ما ظهر على ارضها في عهد الحكم العربي فيضا من عطائها الاسباني ــ العربي ، وجزءا من اعظم اجزاء تاريخها الماضي ازدهارا : فالواقع ان قسما كبيرا ممن خدموا الفكر والحضارة في ذلك العهد في اسبانيا كانوا ممن ولدوا ونشأوا فيها : من مواطنيها العرب والاسبان معا .



ان حضارة الفكر الاندلسي لهي عطاء مشترك : ساهم فيه الاسبان مع العرب مساهمة كبيرة . لقد اعطى العرب الاسبان واخذوا منهم ، وبتعاون الجميع نهض بناء الحضارة الاندليسية ، وازدهر الفكر الاندلسي . ومن المؤكد انه لو كان العطاء والبناء من جانب واحد فقط لما كان في الاندلس ذلك الازدهار الرائع في الحضارة ، ولا تلك النهضة الفكرية المدهشة . أقول هذا وانا اعلم حق العلم ان التأثير الاكبر كان للفكر العربي الاسلامي الذي دخل مع الجيوش العربية ، وتكامل بعد الفتح ، ولقي استجابة سريعة وتعاونا كبيرا من السكان الاصليين ، ثم لقي مع الزمن اقبالا عظيما كذلك من شعوب البلدان الاوروبية المجاورة . وبذلك اتسع مدى الاخذ والعطاء اتساعا عظيما .

حين جاء العرب الى اسبانيا كان لهذه البلاد ثقافتها المسيحية ، وكان فيها عناصر باقية من الحضارتين الاغريقية واللاتينية ، تتمثل كلها في سائر مجالات الفكر ، والفن ، والعمران . وفي المسيحية والاسلام عناصر روحية مشتركة عديدة : كلتا الديانتين تؤمن بالله ورسله وانبيائه وباليوم الاخر ، وكلتاهما تعد بالثواب وتنذر بالعقاب ، وكلتاهما تستمد قوتها من السماء ، وكلتاهما تصدر عن مصدر

(*) نص المحاضرة التي القاها المؤلف في مؤتمر الدراسات الاسبانية العربية السادس في قرطبة يوم الاربعاء ١٨ اكتوبر ١٩٦٧ .

ازلي واحد ، هو الله ، وتصب في مصب واحد ، هو الحق ، وكلتاهما تدعو الى الخير والرحمة والاخاء الانساني . وقد تختلف بعض الوسائل والسبل ، انما تبقى الاصول واحدة . ومن هنا كان لا بد من استجابة متبادلة بين الثقافة الاسلامية والثقافة المسيحية ، ومن تعاون مشترك بين الفكر الاسلامي والفكر المسيحي . وكانت اسبانيا هي البوتقة التي اجتمع فيها المعدنان الروحيان والفكريان فترة طويلة من الزمن ، وانصهرا معا بنار واحدة، فخرج منهما معدن كريم آخر هو الثقافة الاسبانية ــ العربية الزاهرة . وبفضل امتزاجهما هذا ظهرت على اثرهما النهضة الاوروبية الكبرى ، مبتدئة بايطاليا : جارة اسبانيا والمتأثرة بها تأثرا مباشرا واسعا .

وما كانت الثقافة المسيحية ــ قبل عهد الحكم العربي في الاندلس وفي اثنائه ــ كافية وحدها للاندفاع بقوة نحو الازدهار : فالازدهار يتطلب حرية كبيرة في التجاذب والتفاعل الفكريين ، والفكر المسيحي كان حتى ذلك الحين ينحصر في الاديرة وعلى اقلام الرهبان والقسس، وكان العالم المسيحي خاضعا لسلطة الكنيسة . ولهذا كان الفتح العربي الاسلامي خيرا وبركة للفكر المسيحي والفكر الاسلامي على السواء ، لانه اتاح لعامة الناس ــ وليس للاكليروس وحده ــ ان يشاركوا في اكتساب الثقافة والاستزادة منها دون حدود ، كما اتاح حرية التجاذب والتفاعل مع الفكر الاسلامي الجديد ، واوجد كثيرا من حرية الانطلاق لدى الجانبين . ونحن نجد هذه الحرية لدى المفكرين المسلمين ــ ومن دخلوا في الاسلام من الاسبان ــ كابن باجه ، وابن حزم ، وابن طفيل ، وابن رشد ، وكثيرين غيرهم ، كما نجدها لدى سكان البلاد الاصليين من المسيحيين واليهود الذين تأثروا بجو الحرية .

قلت أن العطاء الفكري والحضاري كان مشتركا متبادلا في الاندلس . والواقع ان العرب الذين حملوا الى هذه البلاد علوم الدين الاسلامي ، وعلوم اللغة العربية وآدابها ، ثم اضافوا اليها بعدئذ مختلف العلوم والفلسفات، كانوا يحملون عناصر قوية خيرة لحضارة تتطلب التكامل، وتنشد التعاون على انمائها وانتشارها . وقد وجدت ههنا التربة الصالحة للغراس الجديدة ، ووجد كذلك التجاوب الواسع معها ، والاستعداد النشيط لتغذيتها وتنميتها . وما كان يمكن مطلقا ان تفرض الحروب والفتوحات وحدها حضارة معينة على شعب من الشعوب اذ لم يكن لدى ذلك الشعب استعداد للتجاوب معها ، ولتغذيتها وانمائها ، وأكثر من ذلك ، اذا لم يكن في تربة ذلك الشعب نفسه عناصر اصيلة تتجانس بقوة وحيوية مع البذور الجديدة ، وتمنحها القدرة على النمو الصالح.

ولقد كانت هذه العناصر المتجانسة موجودة فعلا في التربة الاسبانية ، ولذلك سرعان ما استطاعت غراس الحضارة الاسلامية ان تزدهر وتينع باوسع ما ازدهرت

واينعت في جهات اخرى من الاقطار العربية نفسها التي ظهر وانتشر فيها الاسلام نفسه اولا : فهناك جهات عربية اسلامية ازدهرت فيها علوم الدين وعلوم اللغة العربية والشعر فقط ، ولكن ظل انتشار الفلسفة وعلوم الطب والفلك ، والرياضيات ، والهندسة المعمارية ، وما اليها محدودا جدا ، وفي بعض الاحيان لا وجود له . هذه العلوم كلها ازدهرت اكثر ما ازدهرت في الاندلس ، وفي بلاد الفرس ، والهند ، واواسط آسيا .

وعندما انطلق العرب والمسلمون من جزيرتهم في المشرق والمغرب التقوا بشعوب اخرى ، لها دياناتها ، ولها عقلياتها ، وحضاراتها ، وانماطها الحياتية ، فكان لا بد عندئذ من التجاذب بين العقليات والبيئات ، والحضارات، والديانات ، والمشاعر القومية ، وكان لا بد من التفاعل بينها بعدئذ . ومن هذا التفاعل وذلك التجاذب كانت الحضارة العربية الاسلامية الرائعة ، ومن نتيجتهما ظهرت العقول الباهرة في تاريخ الاسلام : ظهر ابن سينا ، وابن رشد ، والفارابي ، والكندي ، وابن حزم ، والبيروني ، والخوارزمي ، وابن فرناس ، وابن طفيل ، واخوان الصفاء، وابن الهيثم ، وابن خلدون ، والرازي ، وجابر بن حيان، والبتاني ، والعديدون جدا وغيرهم ممن ابدعوا في مختلف نواحي العلوم ، وكانوا منارات تهدي الاجيال من بعدهم .

والى جانب هؤلاء العلماء الافذاذ وسواهم كانت البلدان العربية والاسلامية كلها تزخر بالعديد جدا من الشعراء والناثرين ، وعلماء الشريعة ، واللغويين ، والمؤرخين ، والنسابين ، كما كان فيها الكثير من المفنين ، والفنانين ، وارباب الصناعات والمهن . وباجتماع هؤلاء واولئك جميعا كانت الثقافة الاسلامية الواسعة الفنية ، التي فرضت نفسها على الدنيا اجيالا طويلة بعد ان التقت فيها خلاصات الثقافات والحضارات السابقة والمعاصرة لها، وانصهرت كلها في بوتقة الاسلام واللغة العربية .

وبينما كانت الفنون الادبية اصيلة قديمة في البلدان العربية ، لم ينضج التفكير العلمي عند العرب الا بعد امتزاجهم بالشعوب الاخرى في المشرق والمغرب ، وبعد ان ترجمت الى اللغة العربية علوم القدماء ــ من فرس ، واغريق ، وهنود ، وسواهم ــ وتتلمذ عليها الكثيرون، ثم ظهر بين العرب والمسلمين من استطاعوا ان يهضموها هضما جيدا ويشرحوها بعدئذ شرحا بينا ويضيفوا اليها الكثير من نتيجة تجاربهم الشخصية وعقولهم النيرة .

ولقد استطاعت بغداد العباسية ان تكون المجلى الاكبر للنهضة الفكرية الاسلامية لانها كانت ملتقى كبيرا لمختلف الشعوب ، والثقافات : كان يجتمع فيها العربي ، والفارسي ، والتركي ، والهندي ، والسرياني ، ويلتقي فيها المسلم ، والمسيحي ، واليهودي ، والوثني . وبذلك كانت بغداد مركزا عظيما للحضارة الاسلامية في اروع مظاهرها ، وكان العلماء والشعراء والفلاسفة من كل قطر

يرحلون اليها للتزود من العلم والثقافة الناشئين عن هذا الامتزاج الاممي الكبير .

ان هذا كله لدليل قاطع على ان الحضارة ليست سوى نتيجة للتجاذب والتفاعل بين الشعوب ، والعقليات، والبيئات ، والمذاهب ، والثقافات المتعددة ، ولكنها لا تكون ابدا نتاج عقلية واحدة ، وشعب واحد .

من هذه النقطة أعود الى موضوع هذه الكلمة الاساسي . وسأقتصر على بعض عناصر التفاعل الحضاري في الفكر العربي ـ الاسباني ، وعلى الاخص : عنصر اختلاف البيئة المكانية ، وعنصر تعدد المذاهب الدينية والفئات القومية .

لقد ذكرت في ما تقدم أن العرب حين فتحواالاندلس كان في هذه البلاد ثقافتها المسيحية ، وان التفاعل بين المسلمين الفاتحين وسكان البلاد الاصليين هو الذي انتج الحضارة الاندلسية الزاهرة . وانا الان اريد ان ازيد هذه النقطة ايضاحا من بعض جوانبها . فلقد كان لهذا التعايش بين الشعبين والديانتين ، مضافا اليهما اليهود وثقافتهم الدينية ـ وكانوا كذلك من سكان البلادالاصليين ـأثره الكبير في مختلف مجالات الفكر والفن : في انتشار الجدل الفلسفي والديني ، وفي الهندسة العمرانية ، وفي الشعر ، والموسيقى ، والفناء وكذلك في اسلوب الحياة الاجتماعية .

وعلى الرغم من ان من طبيعة أهل كل دين واهل كل قومية أن يشعروا بالمقاومة العنيدة لكل عقيدة ولكل قومية طارئة تحتل مكانها الى جانب عقيدتهم وقوميتهم ، فقد كانت العناصر الروحية والسماوية ، المتماثلة جدا بين المسيحية والاسلام واليهودية ، ذات اثر كبير في ان تتفاعل مذاهب الفكر الثلاثة تفاعلا جادا وواسعا علىأرض اسبانيا . وقد شجع على ذلك ما كان لدى ملوك المسلمين وولاتهم ـ وعلى الاخص في عهد ملوك الطوائف ـ من التسامح الفكري والديني ، ومن تشجيع للعلوم والاداب والفنون هذا التسامح الذي جعل غوستان لوبون يقول: « لم يعرف العالم فاتحا ارحم من العرب » . ومما قاله ايضا المستشرق الاسباني اميليو غارثيا غوميث : « كانت قرطبة نصف بلد عربي : يتحدث أهله العربية وعجمية اهل الاندلس ، ويختلط فيه رنين الاجراس بآذان المؤذن . . وتجلى اختلاط الناس بعضهم ببعض ، وتجاورت الديانات بعضها لبعض عن جوسمح جميل انساني شفاف» (تاريخ الفكر الاندلسي ـ ترجمة حسين مؤنس ـ ص ٥٩ ـ ٦٠)

يقول المستشرق الاسباني خوان فيرنيت في كتابه ( Los Musulmanes Espanôles ) في حديثه عن ( الفنون الجميلة ـ الهندسة المعمارية ) :

«ان المسلمين الاسبان ، باتصالهم بالثقافات الاخرى القائمة في شبه الجزيرة ، قد اقتبسوا عن الشعب المحتل عددا من العناصر وجسدوها . ونستطيع ان نذكر مثلا ، التأثير القوطي ، في القوس الشبيه بالحذوة »ـ.

ثم يتحدث « فيرنيت » عن جامع قرطبة الذي بناه عبد الرحمن الاول على انقاض كاتدرائية القديس فنسنت، والذي شاء به ان يقف وقفة الندم امام الخلاقة في بغداد . ويقول فيرنيت في هذا الجامع : « ان اول ما نعرفه من الاخبار عن هذا الفن الجديد في العمران الذي نشأ في اسبانيا ، نجده في جامع قرطبة » . ويذكر انه حتى عام ٧٤٨ كانت تقام في كنيسة سان فنسنت الشعائر المسيحية والاسلامية معا : الشعائر النصرانية للمسيحيين المستعربين ، والشعائر الاسلامية . ثم اشترى عبد الرحمن الاول الجانب الخاص بالنصارى المستعربين، واقام الجامع في مكان الكنيسة عام ٧٨٥ . (١) ومن الشرح الضافي الذي كتبه فيرنيت عن بناء الجامع ، نرى انه قد اجتمع في هندسته عناصر من هندسة البناء القوطية للكاتدرائية نفسها ، ومن آثار الهندسة اليونانية ، ثم البيزنطية . وبهذا المزيج الهندسي جاء جامع قرطبة آية من آيات الفن العمراني الاسلامي .

ومن المؤكد ان الهندسة المعمارية الاسلامية كانت دائما متأثرة بعناصر فنية متعددة من شعوب اخرى كانت لها حضاراتها العمرانية . وقد استطاع العرب ان يؤلفوا بينها تأليفا متناسقا ، ويزينوا العمران بالآيات الكريمة بخطوط جميلة زاهية الالوان ، بديعة التنسيق .

واضافة الى فن الهندسة الذي اشتهرت به قصور الاندلس ومساجدها ، هناك أثر الديانتين المسيحية واليهودية الكبير في العديد من المؤلفات التي كانت توضع في الجدل الديني ، وفي التفاضل بين الديانات ، مما جعل للفلسفة ، وكتب التفسير ، ونقد المذاهب سوقا واسعة بين ارباب الفكر من المسلمين والنصارى واليهود . ولعل كتاب « الفصل في الملل والاهواء والنحل » لابن حزم، هو كنموذج واحد من عشرات النماذج . ناهيك بما كتبه ابن رشد ، وابن باجة ، وابن مسرة ، وابن عربي، وابن ميمون ، والكثيرون غيرهم . فهذا التجاذب الواسع، أو التفاعل السلبي بين المذاهب الدينية المختلفة ، كان وسيلة مهمة من وسائل انتشار الفلسفة وكتب الدين . ونحن لا ننسى كم كان لفلسفةابن رشد ، بشكل خاص ، من اثر في كبار فلاسفة النصارى ، ولا سيما في القديس توما الاكويني الذي يعتبر بين اعظم فلاسفة الكنيسة الكاثوليكية . (٢)

ان المقام لا يسمح لي بالتفصيل وضرب الامثلة ، فالمجال المتاح قصير جدا ، ثم ان مثل هذه التفاصيل لا بد ان تكون معرفتكم بها اوسع من معرفتي ، وقد وضعت فيها المؤلفات العديدة المسهبة : بأقلام مستشرقين اعلام من مختلف البلدان ، واقلام كتاب من العرب . وكل

---

**(١) الدكتور حسين مؤنس في كتابه « رحلة الاندلس » ينفي هذه الرواية نفيا باتا ( رحلة الاندلس ـ ص ٧٥ ) . (٢( انظر كتاب El Averroismo Téologico De Santo Tomas De Aquino لميجل آسين بلاثيوس .**

قصدي في هذه الالمامة السريعة ان اضع الايدي على بعض الخطوط الرئيسية ، راجيا عفوكم لاكتفائي بالاشارة دون التفصيل والتمثيل .

ولانتقل الان الى نقطة اخرى من نماذج تأثر العرب المسلمين باتصالهم بالنصارى، وهي تتعلق بالغناء الشعبي.

لقد اتيح لي ان استمع العام الماضي ، في تونس وفي ليبيا ، الى نماذج متعددة من الغناء الشعبي الاندلسي: سواء في حفلات حية شهدتها في تونس وصفاقس ، ام في تسجيلات اذاعية استمعت اليها في تونس وليبيا. وهم في بلدان المغرب يهتمون الآن اهتماما كبيرا باحياء هذا الغناء الاندلسي ، ويدعونه هناك ( المالوف ) . ولعل فيكم من استمع مثلي الى هذا المالوف .

في هذا المالوف اثر واضح لالحان الغناء الديني في الكنائس الكاثوليكية . لقد كنت استمع الى المالوف فأشعر بأنني ــ وانا في حفلة كيف وطرب ــ اعود الى الكنيسة ، استمع الى ترانيمها الدينية . ولم استغرب ذلك ما دام هذا الغناء قد نشأ في اسبانيا : ايام امتزاج العرب المسلمين بأهل البلاد النصارى قرونا متعددة ، حيث تتجاور الكنيسة والجامع ، وحيث تحول العديد من النصارى الى الاسلام ، وتركوا الكثير من آثارهم في الفكر والفن ، وفي حياة الكيف والطرب كذلك .

وأنتقل الآن الى نقطة اخرى كانت من عناصر التأثير في رقة الشعر والغناء ،وانفتاح النفوس للتجديد والابداع فيهما تلك هي طبيعة بلاد الاندلس الجميلة التي لم يألف العرب مثلها من قبل . وحسبي ان اورد هنا ما قاله الشقندي ( ابو الوليد اسماعيل بن محمد ) في «رسالته» التي كتبها لابي يحي ابن ابي زكريا ، عامل سبته ، في المفاضلة بين الاندلس والمغرب .وقد اورد بعضها المستشرق بالنثيا في كتابه :

Historia De La Literatura Arabigo - Espanola

الذي ترجمه حسين مؤنس الى العربية بعنوان « تاريخ الفكر الاندلسي » . يقول الشقندي واصفا محاسن اشبيلية :

« اما اشبيلية فمن محاسنها اعتدال الهواء ، وحسن المباني ، وتزيين الخارج والداخل ، وتمكن التمصر ، حتى ان العامة تقول : لو طلب لبن الطير في اشبيلة وجد ، ونهرها الاعظم الذي يصعد المد فيه اثنين وسبعين ميلا ثم يحسر ... وزيادته على الانهار كون ضفتيه مطرزة بالمنازه ، والبساتين والكروم والانشام ، متصل ذلك اتصالا لا يوجد على غيره ... وقد سعد هذا الوادي بكونه لا يخلو من مسرة ، وان جميع ادوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر ، لا ناه عن ذلك ولا منتقد .. »

ويضيف ايضا :« ان اشبيلية تحوي كل ادوات الطرب .. وان كان جميع هذا موجودا في غيرها من بلاد الاندلس فانه فيها أكثر واوجد . وليس في بر العدوة من هذا شيء الا ما جلب اليه من الاندلس ».

ولست اريد ان أمضي مع الشقندي في ما وصف به قرطبة ، ومالقة ، ومرسية ، وبلنسية ، وغيرها ،وانما اقصد من هذا الاقتباس الخاطف أن ابين ما كان لجمال الطبيعة الاندليسية من أثر في تفتق الاذهان وانفتاح آفاق الخيال ، وتدفق المشاعر الرقيقة في النفوس ، والانطلاق في فنون الحياة الرخية ، واتساع مجال الفنون لدى العرب الذين لم يألفوا ذلك من قبل في بلادهم ، فلما وجدوه هنا اغترفوا منه مادة لادبهم وشعرهم وتفكيرهم وحياتهم . يؤكد ذلك الشقندي نفسه في رسالته ، اذ يذكر انه يختلف كل الاختلاف عما « نجده في المغرب من فقر في نواحي الحضارة ، وجدب طبيعي » ، كما يذكر انه ليس لنهر اشبيلية ومتنزهاته مثيل في مصر ولا في بغداد . واذا لم يكن له مثيل في مصر ولا في بغداد فطبيعي انه ليس له مثيل في شبه الجزيرة العربية كذلك .

هذا الجمال في الطبيعة ، وما من حياة السكان الاسبان من تفتح وانطلاق وحب للهو ، كان جديدا ، وكان لا بد له من تأثير مباشر في العرب الفاتحين : فكرا ، وفنا ، وحياة .

لقد اقتصر حديثي هذا على عناصر التفاعل بين العرب والاسبان ، وبين الفكر الاسلامي والفكر المسيحي في عهود الحكم العربي في الاندلس ، وما كان لهذا الامتزاج بين الشعبين ، والتفاعل بين الديانتين ، من أثر كبير في وصول الفكر العربي الاندلسي الى ما وصل اليه من الازدهار المدهش . وانا لو اردت ان ابحث في اثر هذه الثقافة الاندلسية العربية في العالم من بعد ذلك لكنت كالسابح في بحر لا حدود له . لقد كتبت في هذا الكتب العديدة ، وما زالت تكتب الى اليوم ، وستظل تكتب الى اجيال اخرى . ولن يكون حديثي فيه سوى تكرار لافكار معروفة .

ان اثر الفلسفة العربية ــ الاندلسية في الفكر الغربي ، واثر الموشح والزجل في الشعر الاوروبي ، واثر الغناء الشعبي العربي ــ الاسباني في الغناء الشعبي الغربي ، كل هذا اوسع من ان تحيط به محاضرة ، او يتسع له كتاب ، ومثله ايضا اثر فن البناء الاسلامي الاندلسي ، واثر العلوم الفلكية ، والطبية ، والرياضية ، والجغرافية ، وعلم الاجتماع ، وغيرها من العلوم العقلية والبصرية العربية .

وانه لمن حق اسبانيا ان تفاخر بانها كانت الوعاء الذي انصب فيه ذلك كله ، والجسر الذي عبر عنه الى العالم الغربي بأسره . لقد شاركت اسبانيا في كل ذلك مشاركة جدية فعالة ، ولم تكتف بان تمد يدها للاخذ فحسب ، وبذلك كان لها فضل المشاركة في البناء وفي العطاء ، كما كان لها من جراء ذلك فضل التهيئة للنهضة الاوروبية من بعد .

عمان ــ الاردن

**عيسى الناعوري**

# أندلسيات :

# سقوط طليطلة

بقلم الدكتور فؤاد جبور حداد

من « العروة الوثقى » في لندن

***

سقطت طليطلة في يد الفونسو السادس سنة ١٠٨٥ م فاهتزت لذلك أركان الاندلس وكأن الارض قد مادت من تحت أقدامها . وكانت الاندلس آنذاك تشبه رجلا لاهيا سادرا في لهوه فجاء من لطمه لطمة عنيفة على وجهه جعلته يصحو بعدها ويقف مبهوتا مشدوها وكأنه لا يصدق ما حدث لشدة غرابته . ولم يكن أحد من ملوك العرب والمسلمين في الاندلس يحب «القادر بن ذي النون» صاحب طليطلة ولم يكن « القادر » من النوع الذي تسهل محبته على الناس . ومن الطريف ان لقب « القادر » كان اشبه بتسمية الامور حسب اضدادها كأن نسمي الغراب بأبي البيضاء ونسمي المريض بالسليم ، ذلك لان صفة الاقتدار لم تكن من صفات « القادر » في شيء ولو تسمى بما يليق به لكانت صفة « العاجز » أو الخانع اقرب الى حقيقته واصدق . وعن هذه التسمية وأمثالها قال ابن رشيق عندما زار الاندلس :

مما يزهدني في ارض اندلس  القاب معتمد فيها ومعتضد
القاب مملكة في غير موضعها  كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

وكانت طليطلة عاصمة اسبانيا قبل دخول العرب . ولما دخل طارق سار بقواته بعد معركته الاولى صوب طليطلة رأسا . فقد عرف ذلك النابغة العسكري ان من قبض على طليطلة فقد قبض على الاندلس كلها فهي قلب الجزيرة وتكاد تتوسطها تماما وتقع فوق هضاب عالية يضاف الى ذلك انها كانت ذات مكانة خاصة في قلوب الاسبان . ولهذا بقيت أثناء الحكم العربي لها الذي دام ثلاثمائة وسبعين سنة عاصمة الاسبان الروحية ورمز سيادتهم القديمة ولذلك فان استرجاعها كان امنية من أعز امنياتهم وحلما من أعذب أحلامهم .

وتقول الرواية الاسبانية ان العناية الالهية قد يسرت السبيل الوحيد لاحتلال طليطلة وذلك هو تعريف الفونسو بوسائل الدفاع الداخلية وطريقة توزيعها ومقدار قوتها الفعلية . ولذلك قصة طريفة هي ان الفونسو عندما توفي والده هرب من وجه أخيه « سانشو » الذي استأثر بالملك دونه والتجأ الفونسو الى ملكة طليطلة محتميا بالمأمون بن ذي النون جد القادر . وأكرم المأمون وفادته وعاش عنده الفونسو تسعة أشهر معززا مكرما .

وقد تعرف في تلك الفترة على وسائل الدفاع الداخلية للمملكة وبقي هناك الى ان قتل اخوه « سانشو » وجاءه رسول وهو في طليطلة ينبئه بان عرش قشتالة قد آل اليه . ويعلم المأمون بن ذي النون ان الفونسو سيصبح ملك قشتالة فيطلب منه قبل ان يسمح له بالذهاب ان يقسم بان لا يحاول الاستيلاء على طليطلة اثناء مدة حياة المأمون او حياة ابنه من بعده فيقسم له الفونسو بذلك . وتشاء المصادفات ان يتوفى المأمون بعد ذلك باربع سنوات فلا يخلفه ابنه بل حفيده يحيى القادر . وهكذا يصبح الفونسو في حل من قسمه السابق لان القسم شمل الابن ولم يشمل الحفيد .

وكانت تحيط بطليطلة من الممالك العربية مملكة سرقسطة من الشرق واشبيلية من الجنوب وبطليوس من الغرب . وكانت مملكة طليطلة في نزاع دائم معها جميعا لا سيما مع مملكة سرقسطة التي كان يحكمها « مقتدر » آخر هو المقتدر بن هود . وقد يصعب على المرء ان يجد خلافا في التاريخ العربي اكثر شؤما ونحسا من الخلاف بين المقتدر والقادر خصوصا وان ذلك الخلاف الانتحاري كان قائما على امتلاك قلعة صغيرة تقع بين المملكتين لا تضر ولا تنفع ومع ذلك نجد ابن ذي النون يدفع الاموال لملك قشتالة ليقوم الاخير بالعيث والتخريب في مملكة سرقسطة ويرد على ذلك ابن هود فيدفع اموالا اكثر لملك قشتالة ليقوم بالعيث والتخريب في مملكة طليطلة . وتكون النتيجة ان يهاجم الاسبان ارض المملكتين العربيتين باذن من ملكيها فينهبون الاموال ويخربون الزرع ويسبون النساء والاطفال ثم يأخذون الاجر على ذلك .

اما المعتمد ملك اشبيلية فلم تكن علاقاته بالقادر احسن من علاقات ملك سرقسطة . فقد كان المعتمد يغتنم فرصة انشغال القادر فيأخذ الحصون المتاخمة لبلاده واحدا بعد الاخر . وكان يتطلع الى توسيع رقعة مملكته توسيعا كبيرا بضم القسم الذي يقع جنوب نهر التاجة من مملكة طليطلة . وكان يتفاوض مع الفونسو على هذا الامر ، ويقال ان الاتفاق قد تم فعلا بين الطرفين على ان يأخذ المعتمد المنطقة التي يريدها ويرضى بأن يستولي الفونسو على طليطلة . وتقول المراجع الاسبانية ان المعتمد قد زوج الفونسو في ذلك الحين من ابنته « زائدة » تأكيدا لولائه ، وتثبيتا لاتفاقه . ولا شك ان الفونسو قد تزوج من اهل المعتمد ولكن الارجح انه تزوج كنة المعتمد اي ارملة ابنه سراج الدولة وقد تسمت باسم ماريا وانجبت له ولده الوحيد « سانشو » وولي عهده فيما بعد .

واخيرا يضيق اهل طليطلة ذرعا بالقادر فيخلعوه فيهرب ويختبىء في قلعة بعيدة ويرسل اهل طليطلة الى ملك بطليوس « المتوكل بن الافطس » ليأتي ويحكمهم

ويأتي المتوكل وهو كاره ويحكم طليطلة عشرة اشهر الى ان يستجير القادر بالفونسو ويذكره باحسان جده اليه . فيوجه الاخير جيشا الى طليطلة يعيد القادر من جديد الى عرشه السابق ويعود المتوكل الى بطليوس راضيا من الغنيمة بالاياب .

ولكن لا تلبث خطورة ذلك الحدث الجلل ان تبدو واضحة عند الامعان في النظر فقد احست الاندلس العربية لاول مرة ان سيادتها العسكرية او تفوقها على عدوها لم يعد كما كان منذ ايام الفتح أمرا طبيعيا لا جال فيه بل أصبحت الامة العربية بين عشية وضحاها تحت رحمة عدوها واصبح الفونسو قادرا على محاربة الممالك العربية كلها مجتمعة والانتصار عليها .. ويقول في ذلك مؤرخ عربي بعد سقوط طليطلة « وبذلك اخذ القشتاليون بمخنق الاسلام وبركوا على قلبه في جزيرة الاندلس وصار بعدها ثغره معورا وأمره مدبرا » . واحس الناس احساسا عميقا بالهزيمة والخوف من المستقبل . وفي ذلك قال ابن العسال وهو عبد الله بن فرج اليحصبي على أثر سقوط طليطلة :

**حثوا رواحلكم يا أهل أندلس — فما المقام بها الا من الغلط**
**الثوب ينسل من أطرافه وأرى — ثوب الجزيرة منسولا من الوسط**

ولدينا صور شعرية كثيرة تظهر حال طليطلة في تلك الفترة فهذا شاعر يقول لابن ذي النون وكان يبني قصرا من قصوره العديدة :

**أتبني بناء الخالدين وانما — بقاؤك فيها لو علمت قليل**
**لقد كان في ظل الاراك كفاية — لمن كل يوم يعتريه رحيل**

وقال شاعر آخر يصف طليطلة بعد ان غادرها اهلها :

**أضحت طليطلة معطلة — من اهلها في قبضة الصقر**
**تركت بلا أهل تؤهلها — مهجورة الاكناف كالقبر**

أثناء كل هذا بقي الجبار نائما مستغرقا في سباته ذلك هو الشعب العربي في الاندلس . فقد كانت الدسائس والمشاحنات تقوم بين ملوكه ولم تكن له فيها ناقة او جمل وكانت ملوكه ترهقه بالضرائب الباهظة فيذهب معظمها جزية لملوك قشتالة وليون وينفق الباقي على حياة البذخ والترف والرفاهية . ولهذا لم يكن هناك اتفاق في الاتجاه والمصلحة بين الشعب العربي من جهة وبين حكامه من جهة اخرى . وهذا يفسر الاهمال في رغبة الناس للقتال ويفسر الاهمال الذي كان يقابل به الناس مصاير اولئك الملوك . فمثلا عندما جرى بعد بضع سنوات للمعتمد بن عباد ما جرى من ذل وأسر لم ينتصر له احد ولم يحاول شعبه ان يساعده في شيء . **هكذا كانت الاحوال** قبل « البطشة الكبرى » وانقضاض الفونسو على طليطلة عاصمة القوط القديمة وحجر الزاوية في بناء الاندلس تلك التي قال عنها الشاعر :

**زادت طليطلة على ما حدثوا — بلد عليه نضرة ونعيم**
**الله زينه فوشح خصره — نهر المجرة والغصون نجوم**

وبعد حصار دام تسعة اشهر دخلها الفونسو ( الاذفنش ) ظافرا ونزل في قصرها المشهور الذي كان ينزل فيه ايام محنته في ضيافة المأمون . أما « القادر » فيصف لنا ابن بسام خروجه من طليطلة بهذه العبارات « وخرج ابن ذي النون خائبا مما تمناه شرقا بعقبى ما جناه والارض تضج من مقامه وتستأذن في انتقامه والسماء تود لو لم تطلع نجما الا كدرته عليه حتفا مبيدا ولم تنشىء عارضا الا مطرته فيه عذابا شديدا واستقر بمحلة اذفنش مخفور الذمة مذال الحرمة ليس دونه باب ولا دون حرمه ستر ولا حجاب . حدثني من رآه يومئذ بتلك الحال وبيده اصطرلاب يرصد فيه أي وقت يرحل وعلى اي شيء يعول وأي سبيل يتمثل . وقد اطاف به النصارى والمسلمون اولئك يضحكون من فعله وهؤلاء يتعجبون من جهله » .

وهنا نقف قليلا لنسترجع الاحداث الرئيسية في هذه القصة الاليمة .. لا شك ان الممالك العربية كانت **في نزاع مستمر وحرب دائمة فيما بينها وكانوا يصانعون عدوهم المشترك ويدفعون له الجزية** . وقد ذهب المعتمد **الى حد التواطؤ معه في أخذ طليطلة** . ومع ذلك نجد ان الاندلس تهتز من اقصاها الى اقصاها وتحس بسقوط طليطلة احساسها بزلزال قد أصاب الدنيا فقلب الاوضاع راسا على عقب ويستغرب الدارس لاول وهلة عنف ذلك الانفعال وشدته لا سيما وان سقوط طليطلة يبدو نتيجة حتمية طبيعية للظروف السائدة في ذلك الحين .

هناك بعض الشبه بين سقوط القدس وسقوط طليطلة . وتنحصر أوجه الشبه في قيمة المدينتين من الناحية العاطفية عند الجانب الاخر ثم الانفعال العنيف الذي ظهر على الشعب العربي عند سقوط المدينتين يضاف الى ذلك ان العدو اصبح يتيه بقوته ويدل بعنفوانه لان الاوضاع العسكرية قد انقلبت بشكل فجائي . ولو لم اعرف ان هذه الابيات قيلت في أهل طليطلة لقلت انها في اهل فلسطين :

**كفى حزنا بان الناس قالوا — الى أين التوجه والمسير**
**أنترك دورنا ونفر عنها — وليس لنا وراء الارض دور**
**فتح واندب رفاقا في فلاة — حيارى لا تحط ولا تسير**
**لئن غبنا عن الاخوان انا — باحزان واشجان حضور**
**وكان بنا وبالقينات أولى — لو انضمت على الكل القبور**

ونستطيع اليوم ان نرسل لعدونا نفس الرسالة التي ارسلها آنذاك المتوكل بن الافطس ، ملك بطليوس الى الفونسو السادس يرد بها على تهديده ووعيده فيقول :

« اما تعييرك لنا فيما وهى من احوالنا فبالذنوب المركوبة ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الاملاك علمت اي مصاب اذقناك كما كانت آباؤك تتجرعه . وما تتربصون لنا الا باحدى الحسنتين :

**نصر عليكم فيا لها — من نعمة او شهادة**
**في سبيل الله — فيا لها من جنة »**

# غرناطة

ذكراك يجهش دونها الندم ... وبها يضج الجرح والالم
تبلى العصور وعار ما اجترحت ... كف الهزيمة ليس يلتئم
أشجاك أن بنيك من خور ... خذلوك عند البأس وانهزموا
حذروا الحمام فأحجموا سفها ... والموت في العيش الذي وهموا
يا بؤس للقوم الاولى جبنوا ... عن حفظ ما تستودع الذمم
عيش الذليل على المدى غصص ... من دونه الاوجاع تلتطم
ولرب عيش من مهانته ... يحلو لديه الموت والرجم
من نام قرب النار تحرقه ... النار ما تلقاه تلتهم

ما كان أفجع ما رويت لنا ... بلسان حال ليس يتهم
أعربت بالشكوى فهجت لنا ... شجنا كقرب النار يضطرم
وأثرت أوجاعا نكاتمها ... حينا على كره ونبتسم
شكواك ما رسم المغيب على ... لوح السماء وردد النغم
وحفيف أوراق تعابثها ... وهنا يد لنسائم وفم
تطوين اوجاعا وينشرها ... رجع الصدى والسهل والاكم
أوليس في ناي المغيب صدى ... من دونه الزفرات تنسجم
كم تعرب العبرات عن شجن ... في وصفه تستعجم الكلم

استرفد الذكرى فتعرض لي ... صور تشيب لهولها اللمم
وتغص أجفان بحرقتها ... من ذكريات حشوها السقم
من ذا ألوم وما أقول اذا ... قسط البنون وعقت الرحم
ان العداة بنوك حين مشوا ... في عاصف الاهواء وانقسموا
أحقادهم ما بينهم عصفت ... بفوارس وكأنها حمم
يتقاتلون على الهوى شططا ... وديارهم بيد الردى رمم
قصرت عن العلياء همتهم ... وامتد باع للخنا وفم
ان الاولى في ظلم ما اقترفوا ... صرعوا وكانوا الاثمين هموا

( حمراء ) (١) ما تخفين جاهدة ... أوجاعه ما ليس ينكتم
شر المصائب ما جنته يد ... لم يثنها عن ظلمها رحم
والعار حي لا يموت اذا ... قدم الزمان وبادت الامم
ان الخيانة ليس يغسلها ... من خاطىء (٢) دمع ولا ندم
هل رد دمع سال صيبه ... ما ضيع الخزلان والهرم
دمع الهوان العار ليس له ... من راحم ويمجه الكرم
تغلو الديار بأهلها لكم ... بالاسد عز الغيل والاجم
والعجز زلزل شامخا وطوى ... للمجد ركنا ليس ينهدم

دمشق — **عدنان مردم بك**

(١) قصر الحمراء المشهور (٢) لما انسحب ابو عبد الله الصغير اخر ملوك بني الاحمر اخذ يبكي

---

لذلك الموقف الشريف الذي وقفه في ذلك الحين . ومما يثلج الصدر ان الله قدر لذلك « الشهم » بعد سنة واحدة ان يشاهد الحسنة الاولى تتحقق في معركة الزلاقة وذلك في اكتوبر سنة ١٠٨٦ م. ومن يدري فقد يمن علينا الله فتكتحل اعيننا نحن ايضا بزلاقة جديدة وما ذلك على الله بكثير .

لندن — **فؤاد جبور حداد**



يوسف عبد المسيح ثروة

# مسرح صموئيل بيكيت

بقلم يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

صموئيل بيكيت ( ١٩٠٦ ـ .. ) قاص وكاتب مسرحي ارلندي ولد في دبلن . هاجر ـ وهو في مقتبل شبابه ـ الى فرنسا وهناك تعرف على جيمس جويس ، وعاد الى دبلن في اواخر الثلاثينات ليدرس في كلية Trinity . وفي سنة ١٩٣١ ترك مهنة التدريس وطاف في ارجاء كثيرة من اوروبا واستقر به المقام في باريس عام ١٩٣٧ ، ومن هناك بدأ نشاطه القصصي والمسرحي ، ولما كنا في صدر دراسته بصفته كاتبا مسرحيا فاننا سنضرب صفحا عن قصصه التي لم تنل ما نالته مسرحياته من شهرة طائرة وصيت واسع ..

كتب بيكيت مسرحيات عديدة منذ ظهور مسرحيته « بانتظار غودو » سنة ١٩٥٣ ومنها « نهاية اللعبة » و « كل الساقطين و « الجذوات » و « الايام السعيدة » و « فصول بلا كلام » وآخر مسرحية ظهرت له هي « مسرحية » سنة ١٩٦٣ ..

فما هي المميزات البارزة في مسرح بيكيت ؟ وما هي مقومات هذا المسرح ؟ وما هي المنطلقات الفكرية التي يصدر عنها هذا المسرح ؟ وما هي مكانته بالقياس الى مسرح العبث ؟ ودور هذا المسرح في المسرح العالمي الحديث ؟ هذه الاسئلة وكثير غيرها تتوارد على الذهن مسرعة متلهفة احيانا ووانية احيانا اخرى بغية الحلول الشافية ، ولا سيما في بلدنا الذي يجد نفسه منذ عهد قريب تجاه مذاهب فكرية جديدة اتخذت لها مضامين مسرحية جديدة على أيدي سارتر وكامي وروبلس واونيسكو .. واخيرا جاء دور بيكيت ، الذي يبز الجميع في القدرة على التغريب والاغراق في الوحشية الفكرية والتحليق في السدم والمجرات ، وفي الغوص الى اعماق النفس ، الى اسافل الحثالة في هذه الاعماق ، وفي التعرية العنيفة للصفيف من الاستار والبراقع والاقنعة .

وبلدنا حائر بائر ـ وهو في صدد هذا الطوفان ـ من الافكار الغريبة الجديدة ، وعلة هذه الحيرة يعزى ـ بالدرجة الاولى ـ الى افتقادنا الى دراسة جدية موضوعية نقدية للفكر العالمي المعاصر ، بفروعه وتشعباته وتفرعاته ، فما ينقل الى لغتنا ـ في هذا الصدد ـ لا يعدو ترجمات لكتب ذات اتجاه معين : فمن البراغماتية والوضعية والوجودية والعدمية الى ادب ( اللا معقول ) وكلها تنفرد بصفة مشتركة هي الاهتمام المرضي بالذات الفردية ، وتمكينها من التشرنق في الشرنقة الحريرية وابعادها ـ ولو من طريق فكري ـ عن الالتمام بالذوات الاخرى ، بالاخرين ، حتى اذا كانت الوسيلة الى ذلك الانسلاخ المزيد من الاغراب والاغراق في الحذلقة والاستغراق في السفسطة والمنجهية الذهنية ! .

هذا عن الفكر بعامة اما عن المسرح بخاصة ، هذا الحقل الخصب الذي اخذ يتوسع ـ على حساب الحقول الاخرى في ارجاء العالم المثقف كافة فانكماشنا عنه ـ باستثناء الكنانة ـ مدة طويلة ، وانفتاحنا المفاجىء عليه في الفترة الاخيرة ـ وضعنا في موضع المنتبه لتوه من نومه بفعل كابوس حلم على افظع ما يكون من الثقل والعنف والفجاءة ، فانبهرت انفسنا بسبب عدم استعدادنا وميوعة مواقعنا الفكرية وتسيبنا الايديولوجي المتشبث باللبرالية الفوضوية ، والتذرع بالشهادة ( ان وجدت ) امعانا في الكسل الذهني ، وكل هذه الامور تفتح السدود على مصاريعها امام تيارات الفكر العابثة واللا معقولة والبعيدة عن ارضية الواقع ، والمحلقة في سديم ( الانا ) واجواء اللاجدوى ..

هذه التيارات استطاعت ـ في غفلة من الزمن ـ وعلى حساب الفكر الجاد والباحث المنقب ـ ان تفصلنا عن واقعنا الحي ، وان تبدد قوانا وتشل فعاليتنا وتمزق قدراتنا ، فيكون ما يكون من آثار الطوفان التي لا نزال نواجهها بقلوب دامية ونفوس مهيضة ، ونحن لا نعرف سبيلا واضحة في ميدان الفكر الوسيع ، اذا اختلطت علينا السبل واختلفت امامنا الافاق ، وتاه الادلاء المعنيون بالفكر ، فاذا ما قالوه البارحة بشأن فلان لا يصلح ان يكون اليوم دليلا هاديا ، في الطريق الفلانية ، واذا بنا في ليل بهيم ، يحل بارضنا ثقيلا ثقل الرصاص ، ونحن تائهون نتعثر هنا وهناك طلبا لضوء نجمة قصية او شهاب عابر ! يأخذنا هذا الكاتب العابث يمنة ليتسلمنا كاتب عابث آخر يسرة ، وكلهم في العبث سواسية ، واذا لم يعد العبث ينطلي على ابناء الغرب منذ سنة ١٩٦٢ كما هي شهادة الاستاذ الناقد ج. آر تايلر (١) . فهو لا يزال منطليا علينا ، لان الجدة تبهرنا عن حقيقة هؤلاء العابثين الكبار من الكتاب الذين تعرت مواقفهم وتبدت حقيقتهم، واستقر امرهم على ما استقر عليه ، واذا هم كهنة فريسيون، ظاهر وجودهم بياض ناصع كالقبور المكلسة وباطنهم عظام نخرة وجيف تعيش على اغلالها الديدان كما كان يقول الناصري بحق وحقيق!

ومن يكون بيكيت غير واحد من اساطين العابثين من الكتاب الذين لا يجدون معنى لاي شيء لانه لا سبب لاي شيء ؟ قد يكون في هذا غلو او اعتباط او مغالاة وتجن ، وقد اكون مخطئا ، وانا في بداية بحثي ان اقول ما اقول ، وارجو ان اكون كذلك دفعا لمختلف الظنون والاوهام . ولكن الحقيقة ـ مع مزيد من الاسف الغاضب ـ لا تفر من كونها حقيقة وان عذبت واهينت ووضعت في قفص !

فمن مميزات مسرح بيكيت معالجة تفاهة الكون والوجود الانساني، وحقيقة الفراغ وسقم الصراع بين التفاهة والوصول الى هدف معين في الحياة ، وعدم وجود معنى ، مهما يكن هذا المعنى هزيلا سقيما ، والتوكيد على هزلية الحياة ،واعتبارها لعبا ولهوا ، والاقتصار على هذا اللهو واللعب وهكذا « فان فكرة الحياة كلعبة وكمحاولة الانسان للعب تظل الموضوع الرئيسي في المسرح البيكيتي (٢) » وكذلك الصلات الانسانية ليست سوى مجهودات ضرورية لخلق التوتر الذي هو ضرب من ضروب اللعب ... وجمال هذه الصلات (من ناحيتي الزمان والمكان) هو الحلبة الطبيعية الملائمة للعب الاطفال الاشرار ، الذين هم نحن

وانتم وهم .

ان مسرح بيكيت لا يعترف بوجود الحياة الا بصفة هذا الوجود تفاهة كبيرة وسخافة دامية مأساوية .. ولذا فحواره الذي يتضمن في توتر مسرحه ، حوار مليء بالقتامة والبؤس والاستخذاء المهين ، و « هذا التوتر هو وجودنا نفسه » . وكل مظاهر الحياة ـ عند بيكيت ـ ليست غير ولادة وفراغ وموت . ومن ثم فالعبث هو ظل الحياة الظليل ، هو الوجود نفسه ، بسقمه وقماءته وشروره ، هو الميسم الذي يسم كل شيء في هذه الحياة ، ولهذا السبب بالذات فان بيكيت لا يصارع في مسرحه الشر بصفته طابعا سلبيا في الحياة ، بل يعادي الحياة نفسها باعتبارها دملة كبيرة في هذا الوجود ، في الكون ، والعالم ، وفي الانسان نفسه . واذن ليس ثمة من محبة وحب وتعاطف ومشاركة واحدة في مصير واحد ، بل مقت متقابل شديد ، مستور باغشية النفاق والرياء والمخاتلة . الفرد يكره الفرد فهو نقيضه ، والفرد يكره المجتمع فهو عدوه ، والمجتمع يمقت الفرد فهو غريمه ، والكل في غمرة البغضاء غارقون . لا أمل لا رجاء ، لا طريق من هاوية الفراغ واللا جدوى واللا معنى !

اما مقومات مسرح بيكيت ، فتبدو في فكرة الانسلاخ عن الواقع الحي ، وابعاد الانسان عن تأريخيته واجتماعيته ، وفي جو الرعب المذهل الذاهل الذي يسيطر على كل شخوصه ، ومحاولة قتل الوقت باللجوء الى تفاهات وسخافات رمزية . والاهتمام بالتعلق الذهني بشيء ، قد يحصل او لا يحصل ، اي التوقع المليء بالهواجس السود، وحشد المواقف السلبية حشدا مقصودا بغية القضاء على كل امل او رجاء في فرج قريب او بعيد ، والتوكيد على انعدام الزمن ، وبقاء الاشياء في مواضعها ، على الرغم من الحركة الظاهرية المشلولة . واكبر دليل على انعدام الزمان هو الانتظار الذي لا ينتهي ، والذي ليس له قرار . والانتظار في نفسه ـ مرارة علينا ان نتجرعها لانها هي القيمة الوحيدة في الحياة والحركة نفسها ، اذا وجدت ، فهي ليست انطلاقا حيا واستجابة من انسان حي ، انها موجودة لا وجودا عيانيا بل وجودا وظيفيا ، انها لازمة من لوازم ازجاء الوقت ، قتل الفراغ ، عمل المستحيل ، في عالم ميت ووجود هامد .

اما المنطلقات الفكرية التي يصدر عنها مسرح بيكيت فيمكن تركيزها في العدمية الميتافيزيقية ، التي تدرس ظاهرة الانسان دراسة ذاتية بعيدة عن كل موضوعية ، فهي تتجاوز الحواجز المادية للوجود البشري بانتزاعها هذه الحواجز وعرض هذا الوجود عرضا سلبيا عاريا، اي وضع الانسان امام مصيره بصفته كائنا فريدا ، لا تربطه بالمجتمع اية روابط ، لان جميع الروابط مواضعات اجتماعية ينبغي عدم الاعتراف بها ولان الظاهرة الانسانية ظاهرة عشوائية غير قصدية وغير غائية ، اي انها طرح او انبثاق في الوجود ، حدث بلا سبب مبرر ، ولا استجابة لاية عوامل ضرورية ، كامنة في دورة الوجود ، في العالم ، وفي الكون . والعدمية الميتافيزيقية تسعى جاهدة الى اثبات سخف الوجود الانساني وعدم معقوليته وسديمية مضمونه ، ومن هنا فقد كان لعزل الظاهرة الانسانية عن غيرها من ظواهر الحياة صلة وثقى بالعدمية من حيث كونها فلسفة تهتم اشد الاهتمام بانفرادية كل ظاهرة ، ودراستها على ذلك الاساس ، من جهة وافراغ المحتوى الايجابي من هذه الظاهرة بحيث تتحول الى اداة سلب ، بل موضوع سلبي في النهاية من جهة اخرى ..

ان العدمية ـ فلسفة وتفكيرا وسلوكا ـ تعنى ـ في مضمونها وشكلها ، وفي كل تفرعاتها ـ الى سلب التاريخ من مضمونه التطوري وقيمة الانسانية ، ونكران كل القيم التي جاهد الانسان ـ عبر تأريخ وجوده الحضاري والمدني ـ على تثبيتها وتركيزها وتأصيل جذورها .. ان السلب والعزل هما الركنان الاساسيان في العدمية الميتافيزيقية ، ولهذا ف « بطل مثل هذا المسرح ليس فقط بطلا ممزقا بشكل دائم وقائما خلف نفسه ، ولكنه ممثل يتصارع مع اقنعته » لان « كل شيء في الواقع غير حقيقي » ومن ثم فوجود الانسان نفسه هو موضوع سؤال كبير ، لا يفترض اساسا وجود حل له .. ذلك ان العدمية تضع السؤال تلو السؤال من غير ان تجهد نفسها لايجاد اي جواب .. اذ لا جواب ، في هذا الوجود يمكن الاطمئنان اليه !

## مسرحية : في انتظار غودو

ان مكانة بيكيت في مسرح العبث مكانة مرموقة ، وهو يأتي في المرتبة الثانية بعد يوجين اونيسكو ، وقد احتل هذه المرتبة بجدارة بمسرحيته « في انتظار غودو » وهي خير مسرحية كتبت بمداد الفكر اللا معقول ، لان مؤلفها بقدرته الدرامية استطاع ان يشد ذهن المشاهد والقارىء شدا غريبا ، على الرغم من عدم وجود مضمون معقول في المسرحية ، وعلى الرغم من بشاعة جوها ، وقتامة طورها ، وتفاهة شخوصها ، وسطحية وجودها .. ومرد ذلك ـ على ما اعتقد ـ هو قدرة الكاتب على تحميل الترقب المسرحي طاقة حيوية مدهشة تمتص شخوصنا بعد جذبها اليها ، وتحيلنا بحبكتها الدرامية الى شخوص تنتظر كما هي الحال بالقياس الى بطلي المسرحية . وقد كان لهذا الايهام ، فعل السحر في المسارح العالمية ، بحيث ادى الى ان يكون لهذه المسرحية شأن واي شأن في النظارة والقراء والنقاد على حد سواء . غير ان هذا الضياء الغامر وصل اقصى حدود انتشاره ، ومن ثم فلا بد له انيعود الى مواضع انحساره ، وها هو في طريقه الى ذلك ، بل هو قد عاد ! .

فقد اخذ مسرح اللامعقول ، بالقياس الى المسرح العالمي ، في شتى مذاهبه ـ النقدية والملحمية والرمزية والواقعية ، يتراجع لان ميتافيزيقيته غطت على وجوده ، كقوة محولة ، مغيرة ، باعثة على الحياة ، ساعية الى صعيد اسمى من صعيدنا ، وجعلت منه قوة معوقة ، وحواجز تحول بين الانسان وبين ان يرى شيئا ابعد من انفه. على الرغم من انها ادعت ولا تزال تدعي انها لم تفرز الانسان عن وجوده الا لكي تعرضه عاريا كما هو في مخاضه وولادته ووجوده الاجوف وانتظاره المرعب ، وموته . الذي هو الحل الوحيد لمعضلة وجوده . ومن الادلة على تراجع هذا المسرح هبوب عاصفة شديدة من النقد حتى في الولايات المتحدة نفسها . ولكي نكون منصفين فيما ذهبنا اليه عن مسرح العبث لا بد لنا ان نلتفت الان الى شواهد تثبت ما ذهبنا اليه ، فلنمد ببصرنا الى مسرحية ( بانتظار غودو ) ففيها الشيء الكثير من هذه الشواهد ...

المسرحية كما يعنونها المؤلف ( مأساة هزلية ) تتألف من فصلين: المشهد : طريق ريفية . شجرة . الوقت مساء . البطل الاول ايستراغون ( مستسلما ) يحدث صاحبه مبتدئا : « لا شيء يمكن فعله » فيجيبه فلاديمير : « لم يعد المرء يستطيع حتى ان يضحك . » ايستراغون يصف البشر جميعا بكونهم قردة جاهلة .. انه يواجه النظارة ثم يلتفت الى فلاديمير فيطالبه بالمسير لكنهما لا يستطيعان . لماذا ؟ لانهما بانتظار غودو . ويلتفت ايستراغون الى اوراق الشجرة ، فاذا بها جافة ميتة ، ويعود ببصره الى صاحبه ليتأكد من المكان ، من الشجرة ، من محل الموعد . واذا بصاحبه ليس متأكدا من المكان المعين كما هي الحال بالقياس اليه .. ان الاثنين مرتبطان لاول مرة بشخص هو غودو ، وهما يظنان ان اسمه هو كذا ...

وحين يتحدثان عن مذاق رأس الجزر ، الذي هو هنا مذاق الحياة . لا يعدو الحوار بينهما عن اجتهاد بسيط ، فالمذاق نفسه هو مسألة مزاج ، او اخلاق ، او قصور لا يمكن فعل شيء تجاهه ... ذلك انه لا فائدة من الصراع ، فالانسان هو هو . والشيء الجوهري فيه لا يمكن ان يتغير . ويحل بوزو ضيفا لينظم الى الجوالين التائهين . فيظنانه غودو ويخيب ظنهما ويكون مع بوزو عبده « لكي »

الذي يشد قياده بحبل متين . ويؤكد بوزو وجود المصادفة العمياء في مسيرة الحياة ويذكر ايستراغون وفلاديمير بتلك الحقيقة بقوله : « تذكرا انني كان يمكن ان اكون في حذائيه ، كما كان هو يمكن ان يكون في حذائي لو لم ترغب المصادفة في خلاف ذلك . » وعندما يسأله فلاديمير : « الا تريد التخلص منه ( يقصد من لكي ) ؟ يجيبه بوزو : « ..الحقيقة انك لا تستطيع ان تقصي هذه المخلوقات بعيدا عنك . فاحسن شيء تستطيعه هو ان تقتلها » .

لكي بعد ان بكى كثيرا ينقطع عن البكاء ، فيعلق على ذلك بوزو متوجها بحديثه الى ايستراغون : « .. ان دموع العالم كمية ثابتة . فكلما بدأ احدهم يبكي انقطع آخر من البكاء » . ثم يضحك بوزو ويستطرد قائلا : « دعنا اذن لا نتحدث حديثا فيه قسوة على جيلنا ، فهو ليس اشد تعاسة من اسلافه » . ويتوقف الوقت فجاءة ، ويبدو كل شيء للكي اسود داكنا .. ويريد بوزو ان يتحرك ولكنه يفطن الى غفلته ويتساءل عن اسم ايستراغون بقوله : « ما اسمك » فيجيبه الاخير : « آدم » . وينسى انه سأله هذا السؤال وينظر الى السماء فيفكر فيها مليا ويقول : « .. وراء هذا الستار من الرقة والسلام والهدوء يتمخض الليل وسينفجر علينا تماما في الوقت الذي لا نتوقعه » . ويختتم كلامه : « هكذا تجري الامور على ظهر الارض الكلبة هذه . » ويسأله ايستراغون عن أمر ما فيرد عليه بان ذاكرته ضعيفة ، وهنا ينتبه ايستراغون الىنفسه ويقول : « وفي الوقت نفسه لا شيء يحدث » . ويريد بوزو ان يروح عن سأم صاحبيه فيلتقط حبل لكي ويقول : « ماذا تفضلان ؟ هل لنا ان نحمله على الرقص او الغناء او المذاكرة اوالتفكير او ؟ وهنا يتساءل فلاديمير : «ويفكر؟» فيجيبه بوزو : « بالتوكيد ، وبصوت مرتفع. حتى انه اعتاد ذات مرة ان يفكر بصورة جيدة ، بحيث اصخت اليه السمع ساعات » . لكن هذا كله لا يهم ، فليس التفكير ولا اي شيء آخر ذا جدوى « لانه شيء يحدث ، ولا انسان يأتي ، ولا انسان يذهب . » الى حد ان بوزو نفسه وقد قصد الرحيل تسمرت رجلاه بتسمر قدميه في الارض فلا يعود يقدر على التزحزح من مكانه فهو غير قادر ( بعد تردد طويل ) على الرحيل .. هذه هي الحياة تسمر في موضع ما ، لا نامة ولا حركة ، هجود شامل عام ، سكينة مطلقة ، كابوس من الرعب الاسود يمزق كل معنى وكل انسجام وكل غاية ..

وتضيع المفاهيم في هذا السديم الغريب الى حد غريب ايضا ، فالصبي الذي يجده فلاديمير بغتة يعسر عليه التفريق بين السعادة والشقاء فاذا سأله فلاديمير : « انت لست شقيا ؟ » يجيبه بعد تردد : « لا ادري ؟ » وعندما يجابهه بقوله : « انت لا تدري أشقي انت ام لا ؟ »يردد الصبي قوله السابق بايجاز :« كلا . يا سيدي !» وهكذا فالصبي لا يقل عنهما شقاء اذا لم يكن واحدا منهما ، ولهذا فهو ساهم ينظر الى القمر وهو يحلق في السماء ويتوقف في مسيرته ليلقى ظلا شاحبا على المشهد .. ماذا يعمل القمر ؟ لماذا هو شاحب الوجه ، انه شاحب ، قد انهكه التعب . ويتحول هذا التعب في نفسي ايستراغون وفلاديمير الى سام يائس ، الى قنوط اسود الى حد يدفع بفلاديمير الى القول : « لم يعد لنا ما نفعله هنا » فيستطرد صاحبه : « ولا في اي مكان آخر . » ويبتعد ايستراغون عن صاحبه قليلا ويقول : « لم نخلق لطريق واحدة » فيضيف فلاديمير من غير غضب : « ليس الامر اكيدا . » ويردف ايستراغون قول صاحبه بقوله : « لا ، ليس من شيء مؤكد » .

وفي اليوم التالي وفي الوقت نفسه والمكان نفسه ينكشف الفصل الثاني عن ايستراغون وقد اشتبه عليه المكان الذي هما فيه فيتساءل : « هنا ، اين نحن الان ؟ فيجيبه فلاديمير : « اين تظن نحن ؟ الاتتعرف على المكان ؟ وعلى حين غرة ، يجيبه صاحبه متاججا بالغضب : « اتعرف ؟ على ماذا اتعرف ؟ كل حياتي القملة لم افعل شيئا غير الزحف في الاوحال ، وانت تحدثني عن هذا المنظر ». وتشتد المرارة في نفس ايستراغون حتى لا يجد مفرا من القول وقد عيل صبره : « ان احسن شيء هو ان تقتلني ، كالاخرين » . فيتساءل فلاديمير « ومن هم الاخرون ؟ » فيجيبه ايستراغون « البلايين من الاخرين . » كل هؤلاء الموتى ، كل تلك الاصوات الميتة التي تحدث « صخبا كالاجنحة ، كالاوراق ، كالرمل وكلها تنطق مجتمعة » .

ويتخيل فلاديمير قدوم غودو ، ويهتف هتاف النصر ويقول : « انه غودو ، في الختام . غوغو . انه غودو . لقد نجونا » . ويسحب فلاديمير صاحبه وينظر مليا الى الافق فلا يجد غير فراغ اجوف ، واذا به يعود الى الارض مرة اخرى ، بعد ان طاش سهمه وخاب ظنه ، ليرتمي في احضان الجحيم . ويأتي دور ايستراغون ليتخيل جماعة قادمة لانقاذهما ، ويبوء هو الاخر بفشل ذريع ، وينتبه الى فشله هذا فيعتذر من صاحبه ويقول : « لقد اضعت وعيي . حدثني ما العمل ؟ » فيرد عليهفلاديمير : « لا شيء يمكن عمله » . ها هما قد ابرا بوعدهما ، ولكن غودو لم يأت ، وهو لن يأتي ، وهما ليسا قديسين ليظلا في موضعهما ينتظران ، لا بد اذن من الرحيل ، وهنا ينبثق بوزو من العدم ، ليحل محل غودو المنتظر ، وليلقي بالرعب ، رعبه هو ، في قلبي الجوالين الافاقين ، فيقول فلاديمير : « كل ما اعرفه ان هذه الساعات طويلة ، في هذه الظروف ، وليس لنا الا ان نزجي الوقت بما يبدو معقولا اول وهله .. ولكن لم يطل هذا التيه في الليل من غير نهاية في هذه الاعماق السفلى ؟ » نعم لقد استطال الوقت وحان المغيب ليتلاشىكل من الافاقين في وحدة وسط لا شيء . وبعد اخذ ورد بين بوزو والافاقين ، ينتفض بوزو غاضبا ويقول : « الم تكتفيا بتعذيبي بوقتكما الملعون ، امر فظيع . متى ! متى ! ذات يوم .يوم كغيره من الايام . يوم اصبح هو (٤) فيه اخرس . ويوم اصبحت فيه اعمى ويوم سنصبح فيه بكما . ذات يوم ولدنا وذات يوم سنموت . اليوم نفسه والثانية نفسها . الا يكفيكما هذا . ان النساء يلدن الاطفال والقبر بين اقدامهن . ويتلالأ الضوء لحظة ثم يأتي الليل مرة اخرى » .

وعلى هذه الشاكلة من المرارة القاتمة يحدثنا بوزو وعلى لسان بيكيت عن فلسفته في الحياة ، وعن مأساة العالم في وجوده الظاهر الوقتي وعن الوقت الذي لا يتغير ، لانه فاقد الحركة ، جامد ، وعن المصير الاسود الذي ينتظر كل شيء يدب على هذه الارض ، وعن تشابه الايام والثواني واللحظات ورتابتها المقيتة ، حتى يعسر التفكير في كل ذلك ، وهذا العسر يظهر جليا على لسان فلاديمير حين يقول : « انا لا اعرف بماذا افكر بعد هذا كله » . ومع ذلك فان شبح غودو لا يزال يعذب فلاديمير ولذا فهو يسأل الصبي : « ماذا يعمل السيد غودو ؟ » فيجيبه الاخير : « سيدي . انه لا يعمل شيئا » . ثم يمطر الصبي باسئلة تتناول مظهره وشكله ، ويخيل للصبي انه يعرفه فيجيبه بما يستطيع الاجابة عنه ، ولكن فلاديمير يشك في كل ذلك ولذا فهو يقول موجها كلامه للصبي : « .. انت متاكد انك رأيتني . ولن تأتي غدا وتقول لي انك لم ترن قط ».

وهذه المفاهيم البائسة المظلمة تتناثر بكثرة في ( نهاية اللعبة ) وهي تتمة منطقية لـ ( في انتظار غودو ) فهام الاعمى يسجن ابويه ناغ ونيل في برميلي قمامة ، ويبقى معه في غرفته اليتيمة عبده اللقيط

---

(١) المعجم المسرحي . جون رسل تايلر . مادة العبث (اللامعقول)
(٢) دراسات في المسرح الفرنسي المعاصر : جاك جويشارنود وجين بيكلمان : الترجمة شاكر النابلسي . (٣) دراسات في المسرح الفرنسي المعاصر : جاك جويشارنود وجين بيكلمان ، ترجمة شاكر النابلسي .
(٤) يعني افراد القطيع البشري باسره ، ي. ع. ثروة . (٥) ضرورة الفن : ارنست فشر .

## الحرف العقيم

مع هديل الحمام كان يعدو وراء الكلمات
قلبه مفعم بالحب
وامنياتي فجة نضيرة
آه لـو تكونين
قطرة مطـر ...
حبـة قمح ...
لؤلؤة في قاع البحار
قوس قزح ينطلق
من ارخبيل الطبيعة
آه لو امسك
قلب المدينة الدافيء بيديه
هكـذا ...
لحضرت معي يا صغيرتي
حضورا ابديا ..

القاهرة — هند نوري

كلوف .. ويبدأ هام بالحديث وكانه يتمم حديثا سابقا : « هل من تعاسة اشد وارفع من تعاستي ؟ لا شك ان ثمة تعاسة اشد من تعاستي في ماضي الزمن . اما الان ؟ فوالدي (وقفة) والدني (وقفة) كلب .. ي ( وقفة ) انني ارغب في ان يقاسوا بقدر ما تقاسي هذه المخلوقات » . لا بد اذن من نهاية للعذاب ، ولكنه التردد قاتله الله ..

ونأتي الى الكلام على الوقت فاذا به هو هو لا يتغير ، كما هي الحال في ( بانتظار غودو ) . اما الاسئلة التي تثار في الحياة باسرها فهي الاسئلة نفسها وكذلك الاجوبة هي الاجوبة نفسها ، لا تبديل ولا تغيير ، فموضوعات الحياة متجمدة ، لان العالم كله اصبح قطبا شماليا او جنوبيا ، ولم تعد الانهار فيه او البحار او المحيطات غير قطعة من الجليد هائلة مرعبة ، ولم يعد كل ما يصوت على هذه القطعة من الجليد غير عواء رياح ثلجية ذلك ان الطبيعة نفسها نستنا فلم يعد ثمة طبيعة . التجمد يصيب ابناء البشر جميعا فيصرخ الاب ناغ : « انني اتجمد » ويقل الضياء فيعوي كلوف : « لا ارى ضيائي يخفت » وتضحك الام نيل من الشقاء قائلة : « وهل من شيء ابعث على السخرية من الشقاء » . ويضرب هام الجدار بكفيه ويولول : « الا تسمع ايها القرميد الاجوف ، الا تسمع ؟ » ويرقى كلوف السلم ومعه التلسكوب ويرى اول ما يرى حشودا من الناس وهم في زهوة المرح والنشوة ، ثم ينظر بامعان واذا هذه الحشود ( صفر ) ويطيل النظر فاذا بالصفر لا يتغير الكل لا شيء ، لا شيء مطلقة .. ثم يعود الى البحر فاذا بالاشرعة تغيب في اليم الواحد تلو الاخر ، ثم يغيب الضياء في المياه ، فلا يعود غير الظلام من وجود ..

ويتساءل هام عن الامواج فيوجه كلوف التلسكوب نحوها ويقول : « الامواج ؟ انها رصاصة » .. ويسأل هام عن الشمس فيرد عليه كلوف : « صفر » وماذا عن الفراغ الذي سيلف العالم ، انه — على حسب رأي هام — « فراغ لا حدود له ، سيطوقنا جميعا ، ولن يستطيع كل الموتى الذين سيبعثون من ملئه . » وهذا الفراغ نفسه يزحف زحفا بطيئا الى اللغة نفسها فيفرغ كلماتها من محتواها ومعناها ولذا فان كلوف يجد من المناسب ان يقول متحديا هام : « .. انا استعمل الكلمات التي علمتني اياها ، فاذا لم تعد تعني شيئا ، فعلمني كلمات اخرى ، والا دعني اصمت » .

وفي هذا الجو المليء بتوقعات الموت والانحلال والتفسخ ، يطيب لكلوف ان يتصور نفسه وقد فارق الحياة ، وقد اخذت جثته بالتفسخ واخذت رائحة النتن تفح ، وهذا ما حمله على القول : « .. لا بد من ان التفسخ ان عاجلا او آجلا . » الا ان صاحبه يجده متفسخا وهو لما يزل على قيد الحياة ، ولهذا فهو يقول له : « انك قد نتنت منذ حين . والمكان كله نتن منبعث من جثث هامدة » . واذن فالبشر الاحياء اموات وان حسبوا انهم احياء ، كل شيء في الوجود ميت ، فلماذا يؤتى بالانسان الى هذا الكون الميت ؟ لماذا يجني الاب على ابنه ؟ ومن هذا التساؤل ينطلق هام عندما يواجه اباه بقوله : « ايها الوغد ، لماذا انجبتني ؟ » . وحيث الموت ، السكون ، الهمود يكون النظام ، وبسبب من تعلق كلوف بهذا النظام نراه يناجيه : « انني احب النظام . فهو حلمي . عالم حيث كل شيء هادىء وصامت وكل شيء في موضعه الاخير ، تحت التراب الاخير . » ومع كل ذلك فان كلوف يريد من صاحبه ان يستمر في الحياة ، ولكن صاحبه يجد الجفاف محيطا به ، نافذا الى وجوده ، وهو لذلك يقول : « .. اشعر كأني تيبست .. آه لو كنت مستطيعا ان اسحب نفسي الى البحر ! اذن لعملت لنفسي وسادة من الرمل بانتظار مجيء الموج . »

ومن هذا الخيال الشاعري ، ينتقل هام الى موضوع السعادة ويسأل صاحبه : « هل حظيت بلحظة من السعادة ؟ » فيجيبه صاحبه « على ما اعلم ، كلا . » ويعود هام ليحلم بالهدوء والراحة ، فيأمل في الوصول اليهما ، حتى ينتهي كل شيء ، الصوت والحركة ، والهمسة في الظلام ، والكلمات اللعينة . وتمضي به الهواجس صعدا في الخيالات ، الى ان يختل توازنه فلا يعود يدري أهو ممتلك زمام ذهنه ام ان هذا الزمام ولى منه هاربا ؟ . ويخيل لكلوف انه يحلم فاذا به يتحدث عن الصداقة التي يتحدث بها الناس ، وعن الجمال وعن النظام ، ويفطن بغتة ان صاحبه لا يعرف هذه الاشياء فيخاطبه قائلا : « .. انك لست وحشا ، فكر في هذه الاشياء ، وسترى كيف يصبح كل شيء جليا وبسيطا . » غير ان صاحبه لا يمكنه ان يفهم هذه الاشياء : « .. انا لا افهم ، سينتهي كل شيء ذات يوم فجاءة ، سيتغير ، سيموت . وقد اكون انا الميت . وهذا ايضا لا افهمه . سافتح باب الزنزانة واذهب . انني محني الظهر الى حد انني لا ارى الا قدمي اذا ما فتحت عيني والا اثرا من تراب اسود بين ساقي . وحينئذ احدث نفسي واقول : انطفأت الارض ، ولو اني لم ارها مضيئة قط . »

وهكذا ف « نهاية اللعبة » كانت خسارة منذ القدم ، وكيف لا تكون كذلك والوقت نفسه ليس غير لحظات من لا شيء ، الان ودائما ، لم يكن له من وجود ، او هو قد انتهى ان كان موجودا ، وقد اغلق باب الحساب ، وتمت الحكاية .. واذا اخذنا كل هذه التجريدات بنظر الاعتبار ، الا يصح لنا ان نقول مع فشر : « ان مثل هؤلاء الكتاب يعملون على عزل الانسان عن المجتمع ، باذابة شخصيته وطيه في الاسرار بصفته اداة « وجود خالد » و « قوى اصيلة لا شكل لها .. وهذا الميل لجعله اداة ( سرية ) في مسرح الاسرار الكونية ، يقصد منه محو وجهه الاجتماعي وحتى الفردي في ضباب سري قديم ينتهي الى لا شيء (ه) » ؟ ونزيد عليه ، ان هذا ليس صورة الواقع في مسرح اللا معقول فحسب ، بل هو جوهره الفرد الذي يمكن التعرف عليه بيسر متى امعنا في مضمونه النظر الجديد ايضا .

بغداد — يوسف عبدالمسيح ثروة

قبل البحر قرص الشمس وعانقه ، والصمت يصرعنا نحن الثلاثة ، اذ لا شيء بيننا سوى تكسر الامواج وارتطامها وصوت سفينة حزينة تودع الميناء .. اشعلت سيجارة وحاولت ابتلاع دخانها لاول مرة ، فقد تعودت ان احبسه في فمي واقذفه اذ أشعر بسخونته تلدغ لساني سعلت ، فرشقني الصديقان بابتسامتين غامضتين . كل منا كان يعارك افكاره ، عدنان يسقط راسه على حافة مسند الكرسي ، وينظر الى الافق بشرود .. واحمد يقلب صفحات مفكرته الصغيرة .. ويعيد تقليبها . ولا ادري كيف قلت .

ـ البحر جميل ..

قال احمد بلهجة غاضبة

ـ كان سيأخذك هذا الصباح .

ـ قلت : هكذا حالنا نحن اهل المدن التي لا تمتلك بحرا ..

ـ قال عدنان دون ان يحرك رأسه : نظل نسبح .. ولا نفكر بالغرق .

وعاد الصمت .. السفينة تنساب بدلال من الميناء ، وقوارب صغيرة يجتذبها الشاطىء . حاولت ان امحو من راسي ما حدث لي هذا الصباح فعجزت .. ماذا لو غرقت .. لماذا انقذني عدنان في اللحظة الاخيرة ، هل كانت فاتنة ستبكي ؟ تخيلت الدموع في عينيهاالنجلاوتين .. تخيلت ابتسامتها ، شفتيها ووجهها ، لا يمكن ان تبكي ، يجب ان تظل عيناها صافيتين تشعان بالطيبة .. تحكيان اسطورة آلهة قديمة . قال عدنان وكأنه يهمس همسا .

ـ نحن خلقنا تعساء ..

وانتظرت ان يقول شيئا آخر ، ولكنه اغمض عينيه كمن يحاول ان يتذكر ما ادمناه .

ـ قال احمد : نحن نحمل الدنيا على اكتافنا .. نظن اننا مسؤولون عن كل شيء ونحن لا نملك اي شيء .

واعتدل في جلسته وهو يشير بيده الى البحر : الشاطىء كان مليئا بالناس !

وسكت . وادركت انه يريد ان يقول : لماذا انت بالذات كنت ستغرق ؟ » . قال احمد : نحن تعساء لا نعرف ما نريد .

لقد هربنا من المدينة آملين ان نجدد حياتنا ، ان نغذيها بنسغ جديد يجعلها تتحرك ولكن ما حدث لي أمسك ألسنتنا فجاءة وجعل حالتنا اشد سوءا مما كنا عليه ، تساءلت مع نفسي لماذا نحن تعساء . قلت :

ـ نحن بحاجة الى امراة تملأ قلوبنا .

تحدث احمد في يأس .. وبان

# الغرق



بقلم جهاد الكاتب

انه يريد أن يبكي .

ـ قطعنا الخامسة والعشرين ولا زال كل منا يعلم بانه سيلتقي بفتاة تحبه ويحبها اننا نكبر سريعا .. سريعا .. نحلم .. ونفكر .. ونظل نفكر في امراة .

بعد دقيقة صمت متشنج .. قال :

ـ سنموت ونحن نحلم .

اطبقنا افواهنا .. ارخى كل منا ظهره على كرسيه . وحاولت ان اشغل نفسي عن البحر والغرق وصوت السفينة الراحلة .. ومن الطيور التي تبحث عن الشمس ، والقوارب التي تتمدد على الرمل لتنام باكرا .. ولكنني لم اقدر ان انسى الغرق والحب . ان فاتنة ليست بالنسبة الي أنثى فقط ... انها الحياة ، فعندما القاها أشعر انني اعيش كما يجب ان اعيش الانسان ، ويزداد ايماني بأن الموت والحب لا يقتلهما كائن .. هما اقوى سر في هذا الوجود . لا ادري ماذا اقول عندما القاها .. اظل انصت اليها عيناي تعانقان شفتيها القرمزيتين .. تصلي لهما وتقبلان خديها الورديين وتسرحان على شعرها .. على جديلتهاالطويلة التي ضفرتها الملائكة بعطورالجنة وينتابني شعور بانني سأعيش ألف سنة ... وانني لا يمكن ان اموت . قال عدنان فجاءة بعد أن اعتدل في مقعده :

ـ ما رايكم ان ننزل الليلة الى حلب ؟

لم أبد حركة واحدة ، كأنني لم اسمع شيئا ، في حين قال احمد بعد اطراقة قصيرة :

ـ ان البحر لا يستطيع ان يغير شيئا من انفسنا حتى ولو ظللنا في مياهه سنوات .. ثم اتجهت انظارهما الي ، قلت :

ـ السفر في الليل خطير .. والطريق وعرة .

وادركت انني قلت شيئا لا أؤمن به ، فاتفقنا ان نعود ، وتلك هي المرة الاولى التي نتفق فيها على شيء بمثل هذه السرعة ...

في الطريق كان الظلام طامسا كل شيء اذ لم نكن لنرى غير انوار مجنونة تتخطف بين اللحظة واللحظة فشعرت انني اقعد في قبر مظلم انتظر حضورالملكين ... ولم اصدق اننا نعود وراءنا اننا لم نقض عند البحر غير يوم واحد .. كان سيأخذني معه .. كان سيحرمني من رؤية الشمس ثانية .. من وداع فاتنة التي كانت ماثلة امامي حتى وانا اغرق ولا ادري ان ناديتها ،



ولكنني اذكر جيدا انني تذكرت كل كلمة قالتها لي .. ومرت في خاطري دفعة واحدة اشياء متناثـــرة .. الشمس .. الله .. المـاء المالـح ، امي ، الديدان ، تابوت اســود ، طيور كبيرة ، اراض جرداء ، كـان البحر يحتضنني .. أشـعر بلـذة وانا بين ذراعيه ، وكـان صديقاي يسبحان ، يتسابقان ، وانا اراقبهما حتى اختفيا وراء الامواج الصغيرة ، فاستلقيت على ظهري استريــح ، ووجهي الى شمس الصباح المأنوسة احرك رجلي ببطء .. وتمنيت ان تـدوم النشوة ، نشـوة الانعزال والوحدة ، متغنيا باحلامي التــي اعشقها ولا اريد فراقها . تذكرت كل شيء احبه في هذه الحياة ولم اعد ارى فيها الكآبة التي تعودت ان اراها . الحب هو وحـده الــذي شدني اليه وداعبني .. منحني كل شيء ، ولم ادر ان الطيور التــي كانت تحـوم فوقي تنتظـر ان ينطفىء جسدي ، وان البحر سيسأم هدوئي .. وتتعب يداه فتتخلى عن ظهري . ظللت أحلم .. الحياة امل وحلم ، وتوقع سعيد .. وفجــاءة غمرتني موجة ، وتلتها اخرى اشد عنفا .. انتفضت ، قذفت بنفسي الى الاعلى وصحت .. ثم طرحتني موجة ثالثة .. وصرخت ، ورفعت يدي .. شعرت بالملوحة تفـزع احشائي وتحرق عيني وناديت كـل جنيات البحر .. كـل الطيـور ، بالشاطىء بعيــد .. والاصدقـاء بعيدون، قفزت مرات الى ان انطفأت الشمس في عيني . حين وجـدت نفسي منطرحا على الرمال مسحت بكفي وجهي المستسلم لاشعة الشمس وأحسست انني اعيش حلما وسرعان ما تبدد هذا التفكيـر اذ سمعت احدهم يقول بصوت مرتفع :

ــ البحر غدار .. يأخذ في كـل سنة شابا .

وهزتني فرحة البقاء حيا ... لم يأخذني البحر ، لا بأس ان يأخـذ غيري .. يجب ان ابقى حيا حتى اعرف شيئا واحدا عـن الحياة .. شيئا بسيطا من صورها ، ولكـي اصرف نفسي عن حادثة الغرق اخذت استعيد كل لقاءاتنا .. عددهـا .. الاثواب التي تلبسها ، سخرت مـن نفسي انني لم اقل لها شيئا بعـد .. وقد لا اقول لانني لا اعرف مـا اقـول ولا اقول كل ما اريـد . وتمنيت ان تضمنا مدينة واحـدة فقلت للسائق : ــ متى نصل ؟

وتلهفت ان يطمئنني ... ولكنه رمقني بطرف عينه وقال وكأنـه يسخر :

ــ لا يستطيع احد ان يقدر متى نصـل .

ان سرعة السيارة وطول الطريق والساعات المشدودة الى معاصمنا يمكن ان تعطينـا فرصة لمعرفـة ساعة وصولنا ، والمضحك اننـا لا نستطيع مع ذلك ان نقدر متـى نصل ، لست ان السائق يحـب الصمت .. تأثرت ان تضمنا لذته . ان الصمت عالـم كامل .. فيه استغراب وعذاب وكآبة ، فيه امل لا تصنعه الضجة فيه نشوة هزيمـة وانتصار . ثم انفجر حديث مقتضب بيننا وبين السـائق عـن حوادث السيارات .. والزواج والاولاد .. وشجر الزيتون الذي لا يسقط ورقه في الشتاء ، وصمتنا حين قـال السائق :

ــ في هذا الوقت من الليل يعود كل الاباء الى اولادهم .

وصعد زفرة وتابع :

ــ لا اعرف ان كنت سأعود ..

عبأ السائق قلبي بكآبة جديدة .. لماذا نحمل هذه الدنيا على رؤوسنا ان ما جرى فيها لا دخل لنا فيه .. لماذا نقضي الساعات نتناقش ونحن اضعف من ان نقدر ساعة وصولنـا لماذا ينتابنا شعور باننا نخسر فـي كل يوم شيئا !

لماذا لم امت اليوم صباحـا .. ماذا لو كنت مت ! هل سيتغـير شيء في هذا العالم . هـل ستقف السفينة يوما آخر في الميناء .. ان الشمس لن ترفض السقوط في البحر ولن تذوب الامواج او تركد المياه .. لن تتوقف الحياة . التفت الـسـي السائق وبدا يريـد ان يتهمني بشيء . قال :

ــ اليوم كان احدهم يغرق فـي البحـر .

وخيم صمت مشحون بنداءات واستفسارات كئيبة .. وتابع بعـد دقيقة :

ــ عجيب ! كيف ينزل الانسان الى البحر وهو لا يعرف السباحة ؟

.. له عمر .. فهو لم يمت .

قلت بصوت مرتفع : ماذا لـو مات .. ان شيئا واحدا لن يتغير في كل هذا العالم .

اشعل لي صديقـي سيجارة .. ودخل هواء سريع رطيب من النافذة، يلهب دخانها . وسـعلت حتـى شعرت ان حلقـي قد جـرح .. وتراقصت السيجارة بين أصابعي . قال السائق :

ــ رائحة حريق !

انتفضنا .. نظر كل منا الى ثيابه. فوجدت في صد رقميصي دائــرة صغيرة تشتعل ببطء .. ووضعت كفي عليها واعتصرت القميص وكأنني افتقد شيئا . ان فاتنة معجبة بهذا القميص ، وانا احرص على ارتدائه دوما لانه يذكرني بها . وشعرت انني احبها بجنون ... واعترفت امـام نفسي انني جبان . انني اخـاف عليها من الغبار .. مـن الشمس . واتظاهر انني امقتهـا . كنـت ساموت دون ان اترك اثرا او تدري انني .. انني لا استطيع ان ازيل صورتها مـن خيالـي . قلـت للسائق : الا يمكن ان تسرع ! ..

فاجابني عن رغبتي دون اعتراض. ظل الصمت يدفع السيارة حتى ابتلعتنا شوارع حلب . افترقنـا بتحيات مقتضبة . وعندما حاولت ان انام ... فشلت . كان زئـير

# قصائد في المعركة

●

## الى القنيطرة

معذرة يا قلعة الاسود
ان دنست ترابك الطهور
شراذم التتار
معذرة اما تجول السكارى
او راح لص يفتح الابواب
في ظهيرة النهار
ويرعب الاطفال والنساء
معذرة اما تجول السكارى
عند هداة المساء
بين البيوت دونما رقيب
معذرة ان انتظرنا
نجمة الصباح
لنستر وجهك المباح
يا حبة القلوب .

## صـــورة

ومن خلال النار والدخان
بين سحائب الرصاص والغبار
رأيتها تقلب الحجار
وتنبش التراب
تبحث ـ والاسى يرجها ـ
عن طفلها الوحيد
تصيح : « يا أسود
لا ترهبوا الحديد والعبيد
ولا تنمر الغراب »
رأيتها في حلكة النهار
رمزا لقلعة الصمود

## كـــر وفر

حين تكسرت سيوفنا
وخيمت على ديارنا الظلال
وانسحب الضياء
خلف الافق البعيد
واكتست التلال
بالدم والاباء
قال : غدا نعود ، والحياة
كـــر وفر ،
أين يصبح الطغاة
حين تهب للقتال
جحافل الرجال
وحين تقصف الرعود

دمشق رضوان عقل

البحر في راســـي .. السفينة الراحلة تصرخ .. القارب اليتيم يصرخ .. الطيور تصرخ .. وكـل الناس يصرخون «غريق» «غريق» . غمرني خوف متزايـــد .. خوف لا استطيع احتماله . ارعبنـــي ذاك المصير ، الماء المالح فـــي احشائي .. واذناي مسدودتان . انــا جثة منتفخة .. الدود يأكلني ، وانــا لا اتحرك . الدود يمتصني .. يمتصني وتنكشف عظامي !

كرهت الماء .. كرهـت اللـــون الاخضر ، والازرق .. وتقيأت نفسي الرمال والسباحة .

غسلت وجهي .. حاولـــت ان اسمع لحنا ، اي لحن . ولكن كل ما في الغرفة كان يصرخ .. حتـــى ثيابي .. قميصي يصرخ . تخيلت ما كان سيحدث . البيـــت يصبح مبكى . والاصدقاء يضعون اكاليـل على قبري ويسرقها التربي ويعيدها الى بائع الزهور ، ويقبض ثمنهـــا .. حتى المـــوت . يصبح ربحـــا للاخرين . سينسانـــي الاصدقاء ، واصبح حكاية ، قضية عتيقة فـــي ملفات الشرطة او خبرا في زاويـة حقيرة من زوايا جريدة مغمورة .

بللت الدموع عيني .. طمــرت وجهي . انني ابكـــي . خوفـــا على نفسي او فرحة لانني لا ازال حيـــا .. لم اكن اعتقد انني احب الحياة. تمنيت الموت اكثر من مرة واشتهيته مرات لانه ينقذني من عذاب لا أعرف مصدره . لماذا يفرق الانسان وهـــو يعرف السباحة ؟!

بكيت .. بكيت لانني اكتشفـــت انني امتلك ما هو اقوى من الموت . وما هو اقوى من الحياة .

حلب جهاد الكاتب




## ١ ـ دراسات فـي النقـد والادب

تأليف الدكتور لويس عوض ـ مجموعـة ابحـاث ـ ٣٩٤ صفحـة ـ قطع كبير ـ مطبعة الجيل للطباعة بالقاهرة

من الكتب التي صدرت حديثا للدكتور لويس عوض ، مؤلفه الضخم « دراسات في النقد والادب » ويقسم ناقدنا كتابه الى اربعة أقسام، في الادب والمجتمع ـ في الشعر ـ في المسرحية ـ في القصة . يتناول في القسم الاول شخصيات لعبت دورها الكبير في اعطاء فكرنا بعض قسماته المعروفة ، مثل عبد الرحمن بن خلدون واحمد لطفي السيد وعباس محمود العقاد وسلامة موسى وشفيق غربال ، الـــى جانب موضوعات : معنى جديد للواقعية ، زيادة على عرض كتاب د. عبد اللطيف احمد علي « مصر والامبراطورية الرومانية في ضوء الاوراق البردية » وكتاب احمد رشدي صالح « في الادب الشعبي » . وفـي القسم الشعري يقدم ناقدنا طريق الشعر الجديد المسدود مـن خلال ديوان صلاح عبد الصبور « اقول لكم » . ثم يعرض لـ « جبهة الغيب» لبشر فارس ودراسة اخرى عن صاحبها ايضا ، و « الارغن» للمستشار حسين عفيف ، و « ابن الانسان » لجبران خليل جبران ترجمة د. ثروت عكاشة . واذا انتقلنا الى المسرحية وجدناه يدرس « يـا طالـع الشجرة » لتوفيق الحكيم في مقالتين ، ثم « لعبة الحب » للطفـي الخولي ، و « السبنسة » لسعد الدين وهبة و « بيت العوانس » للكاتب الاسباني جارثيا لوركا ، و « مأساة جميلة » لعبـد الرحمن الشرقاوي . ويأتي القسم الرابع والاخير لنقرأ دراستين عن نجيب محفوظ وقصصه في « اللص والكلاب وبيـــن القصرين » ، وكذلـك اللامنتمي يحيى حقي في كتابه « خطوات فـي النقد ، و « حادث شرف » ليوسف ادريس ، ثم اخيرا « شلة الانس » للاديب الحزيـن د. مصطفى محمود .

ان من قسمات الوجوه ما تبدو ثابتة بعيدة الغور تحدد ملامـح الشخصية وتبلور اعماقها ، اما البعض الاخر من هذه القسمات فهو حائل اللون ضعيف الاثر لا يطبع بصمة . ومن الصنف الاول في وجه لويس عوض ، جذور الماضي .. التراث القديم الذي لا يجب ان ينكر لحظة واحدة . ويخيل الي ان هذه العقيدة الاولى عند ناقدنا الكبيـر والتي تنعكس في كل ما يكتب شعرا او نثرا ، مسرحية او نقدا . فلا يمكن فهم الحاضر فهما جيدا الا بدراسة القديم واستيعابه تماما ، والا كان بناء بلا أساس مآله الانهيار . ويخطىء مـن يظن ان لويس عوض يعني بالماضي ، مرحلته القريبة فحسب . فهـو يعنـي ايضـا البعيدة والموغلة في البعد . فهو يرى جذورنا تمتد الى مراحل مـا قبل أديان التوحيد .. الى مصر الوثنية كذلك . يؤكد له ذلك المقاومة الشعبية ومكافحة الاستعمار على مدى احقاب التاريخ الطويل ، كمـا يؤكده ايضا .. الادب الشعبي .

ولا يكتفي فناننا بالاشارة الى هذا الموضع او دراسته فحسب ، بل انه ليدعو مثقفينا الى مشاركته مسؤولية هذا الفهم . فهو مثـلا يرى ان الخطوة الاولى في سبيل بناء ثورتنا هـــي « الكشف عـــن شخصيتنا الممتدة جذورها في أعماق تراثنا وفي جهادنا وفي آلامنـا وفي آمالنا كشفا موضوعيا يعيننا على فهم النفس وعلى تحقيق الـــذات وتوكيدها لا اكتشافا زائفا يقوم عـــلى اوهام الغرور » ( ص ١٧٢ ) . واذا كان لا معنى للبحث في جذور الماضي بلا التفات الى أصحاب هـذا الماضي نفسه ، فقد كان الشعب ذاته هـــو المحور الـــذي يستقطب اهتمامـات لويس عوض والهدف الواضح الذي يرنو اليه في مباشرة وغير مباشرة ، لذلك كـان الشعب هو البطل الذي يستشعر القارىء وجوده في كل عمل لكاتبنا . ومن الطريف ان اوضح مثال يمكنه ان يعكس هـــذا الجانب عند صاحب « دراسات في النقد والادب » هو الادب الشعبي . فنحن ازاء مواطن ينتفض وطنية ومثقف يتقد حماسا وتشتعل كلماتــه ثورة .. واول مظهر من مظاهر الثقافة هـــي اعتراف الادب الرسمي بالادب الشعبي فالاعتراف بأدب الشعب هو اعتراف بالشعب ، فلويس عوض لا يفهم كيف يتفق اقامة مجتمع الشعب فيه ركن ركين ولا يعترف فيه بثقافة الشعب وأدبه وسائر فنونه .. يقول .. ولست أزعم هنـا ان الادب الشعبي يداني الادب التقليدي رفعة واصالة فما هنا مجـال الحكم او التقييم ، ولكني ازعم ان الادب الشعبي رغم قصوره من وجوه كثيرة فيه من مواطن القوة والعمق والجلال ما يستحق الاحترام وأزعم ان احتقاره احتقار لذات الشعب ولضمير الشعب ولوجدان الشعب ، وهو امر لا يتفق مع ايماننا بأن فطرة الشعب سليمة خلاقة رغم كل مـا عليها من غبار الفقر والجهالة . ولا نعجب لهذه الكلمات المتحمسة مـن لويس عوض اذا عرفنا ان اول كتاب اصدره ناقدنــا وهو ديـــوان « بلوتولاند » الذي دعا فيه الى تحطيم عمود الشعر ، واثار فيه قضية الاهتمام بالادب الشعبي ، قد سبقته محاولته التي لم تكتب لها النجاح وهي جمع ما تيسر من الشعر الشعبي من افواه الناس بغية دراسته من جميع جوانبه .

ويسوقنا هذا الحديث الى القسمة الثالثة فـــي كتابات لويس عوض ، وهي التي يعكسها العنصر الديني .. فمن الاشياء الكثيرة في حياتنا التي في حاجة الى المراجعة ، تقيمها تقييما دقيقا نافذا الـى اعماقها مكتشفة حقيقتها لتضعها في مكانها المناسب ، الزعم او المغالاة في زعم روحانية الشرق . ومن الطريف ان الكثيرين منا يعتمدون في اثبات هذه الروحانية على قوة سلطان رجال الدين وكثـرة الدراويش المشعوذين وانتشار « اولياء الله الصالحين » احياؤهم وامواتهم ! نفعل ذلك متجاهلين مرايا أصدق في الدلالة والتعبير عن هذه الروحانيــة وتصوير انعكاساتها ، مثل الفنون والاداب . واذا بحثنا في ادبنا المعاصر وخاصة في انتاج هذه السنوات الاخيرة بالذات ، فاننا نصدم ونحـــن لا نكاد نجد اثرا قويا لهذا التأثير الدينـــي ، بعكس الادب الغربـي « المادي » ! ولا يفوتنا في هذا الموضع ان نفرق بين شيئين يبـــدوان متداخلين ويختلط مفهومهما عند الكثيرين وهما ، تعرض الاديب لتناول موضوع ديني ، وسريان الروح الديني في كتاباته جميعا .. الاول يحمل اهتماما وقتيا عابرا وربما غير اصيل او غامر فـي شخصية صاحبه ، والثاني يكشف عن مادة اولية تشترك في تكوين شخصية الاديب . وفي أغلب الاحيان نستشعر النقص في وجود اللون الثاني الذي يفصح ـ أي هذا النقص ـ عن ضعف الصلة بين الفنان والعقيدة الدينية أيا كان شكلها . ومـن الكتاب القليلين عندنا الذين يعكسون قوة هذه الصلة ، نجـد مثلا عبد الحميد جـودة السحـار ود. لويس عـوض . يبلـور الاول فـي انتاجـه القيم الاسلاميـة ويبلـور الثانـــي قيم قبطيتـه . وقـد عانت هـذه البلـورة الدينيـة فـي بعض الاحيان من المفهوم الخاطىء الذي يتهم ظهور هـــذا الانعكاس الديني بالتعصب والتفرقة الدينية ، ولا يلتفت الى ان اقليميـــة الادب أيضا

وصدق صاحبها مع نفسه يجب ان تعكس صلة الفنان بدينه . وفي اكثر من موضع في كتابنا هذا تبدو لمسات لهذا الاثر ، بعضها واضح كما في دراسة لويس عوض لبشر فارس مثلا ، وبعضها لا تفصح عنه النظرة الاولى كما في تناوله لابن خلدون ..

ولا شك ان مؤلفنا بثقافته المستوعبة ونظرته المتكاملة ومنهجه في المقارنة ، قد قدم في مجلده هذا الكبير ، الكثير في شتى الالوان . وفي كثير من المواضع في «دراسات في النقد والادب» يصل صاحبه الى احسن مستوياته ، كما في اشادته بابـن خلدون المبشر بالانسان باني الحضارة ( ص ٥٠ ) ولطفي السيد بين حكم الصفوة وحكم الشعب ( ص ٨٥ ـ ٨٧ ) . والعقاد وقوله في شبابه بحتمية التفكير الاشتراكي ( ص ٩٦ ـ ٩٧ ) ، وحياة شفيق غربال الخاصة ( ص ١١٧ ـ ١١٩ ) ، والسخرية من الادب الهادف بشعارات كفاحه وكفاح شعاراته (ص١٨٢)، والشاعر صلاح عبد الصبور والالتزام ( ص ١٨٩ ـ ١٩١) ، وبشر فارس وسوء التفاهم في أدبه وحياته الخاصة ( ص ٢١٣ ـ ٢١٧ ) ، وحسين عفيف وسبب انطوائيته ( ص ٢٢٢ ) ، وثروت عكاشة وظاهرة حركة الاحياء الرومانسي ( ص ٢٣١ ) ، وتوفيق الحكيم والفن الشعبي ( ص ٢٣٩ ) الخ ...

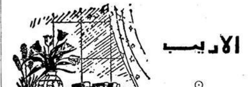
وقارىء « دراسات في النقد والادب » معرض في بحثه عن رؤية لويس عوض ومنهجه الادبي وفلسفة الفن ، لعدم الاهتداء سريعا الى فهم مفتاح كاتبه . وذلك لضخامة حجم الكتاب نسبيا ـ حوالي ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير ـ وكثرة موضوعاته المتنوعة ، وخاصة في اهتمامات ناقدنا الكبير بالنواحي التراثية . الا ان دعوة لويس عوض المعروفة الى أدب وفن في سبيل الحياة والمجتمع ، لا تلبث ان تطل عاكسة فهمها الصحيح في هذه المجموعة من الدراسات ، ولا تحيد عنها . يقول فناننا في مقدمته .. صاحب هذا الكتاب ممن يعتقدون ان هناك علاقة عضوية بين كل مجتمع وما ينتج من أدب او فن او فكر دون ان يجعله هذا الاعتقاد يغض من اهمية التكوين الفردي في توجيه الاديب او الفنان او المفكر . وصاحب هذا الكتاب لا يفهم المجتمع بالمعنى المحلي الضيق ، وانما يفهمه بأوسع معانيه حيث تتعانق روح العصر كله وروح الانسانية جمعاء بروح المجتمع المعين المحدود بحدود الزمان والمكان ، ولذا فهو يؤثر دائما الحديث عن العلاقة العضوية بين الادب والحياة ، فالحياة أعم من المجتمع واشمل لانها تتسع للوجود الفردي والوجود الاجتماعي متداخلين ، وتتسع للوجودالقومي والوجود الانساني متداخلين ، وتتسع اخيرا للماضي وتراثه وللحاضر واثقاله والمستقبل واحلامه عجنت كلها في عجينة واحدة .. وتكتمل صورة الناقد والدارس لويس عوض بموقفه من المذاهب الادبية المختلفة .. اذ لا يقتصر هضمه لمذهب دون اخر ، فثمرات العقول والقرائح الانسانية عنده جميعا على حد سواء شريطة ان تكون ناضجة ، ايمانا منه بقول شكسبير في الملك لير « النضوج هو كل شيء في الحياة » .

وبعد فما أشد حاجة القارىء العربي الذي يشكو من فقر مكتبته العربية النقدية الحديثة ، الى نشاط وحماس كل ناقد عربي يسهم في اثراء هذه المكتبة المسكينة التي تتضور جوعا وهزالا ..

## ٢ ـ أحمد شفيق المؤرخ .. حياته وآثاره

تاليف دكتور عبد العزيز رفاعي ـ بحث ـ ١٨٠ صفحة ـ منشورات الدار المصرية للتاليف والترجمة ـ مطبعة مخيمر بالقاهرة .

يستشعر المرء في كثير من الاحايين حاجته الشديدة ازاء عدم التخطيط في المكتبة العربية الحديثة وبالتالي فقرها في بعض الالوان او الفنون، الى الالتجاء الى ما يشبه ايمان العجائز في تبرير الاشياء غير المفهومة ، وهو أسلوب مهما كان الحكم عليه يفي بالفرض في مثل هذه الاحوال! يحضر القارىء مثل هذا الخاطر وهو يحاول ان يعلل انتظاره ربع قرن


لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

**الاشتراك العادي :**

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

**اشتراك الانصار**

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ المنزل ٢٢٥١٣٩ Tel : Dir : 223819 Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

**مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨**

بيروت ـ لبنان

**صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول**

**البير اديب**

من الزمان على وفاة علم من مؤرخينا المعاصرين هو احمد شفيق (باشا)، ليصدر أول كتاب عنه بقلم د. عبد العزيز رفاعي !

ولقد كان احمد شفيق من الشخصيات التي يصدق عليها ، انها تملأ السمع والبصر حقا . فلزمن يمتد على ربع قرن كان المترجم له يشارك في صنع بعض ملامح مصرنا الحديثة باكثر من أسلوب . فلسنوات طوال كان هو السلطان غير المتوج او الرجل الثاني في بلدنا بعد خديو مصر عباس حلمي ، يشرف على القصر الملكي ومن بين يديه تخرج أخطر القرارات . واذا بعدنا عن مجال السلطة او السياسة، وجدنا لشفيق ايضا مساهمته الفعالة في ميدان اخر له خطورته ، وهو كتابة تاريخنا المعاصر . فكان جهده الذي لا ينكر في ارساء مدرسة المؤرخين المصريين بمذكراته وحولياته .. وكان لثقافة الرجل انعكاسها بقدر غير قليل كذلك في مجالات التعليم والصحافة والاوقاف والازهر.

ويحتوي البحث على بابين ، الاول ( حياة احمد شفيق ) ويضم فصلين هما : نشاته وحياته الدراسية ، وتدرجه في الوظائف واضطلاعه على دخائل السياسة . والباب الثاني ( آثار احمد شفيق التاريخية ) بفصوله السبعة وهي ، احمد شفيق وكتابة المذكرات التاريخية ـ مذكراتي في نصف قرن ـ التمهيد لحوليات مصر السياسية ـ مؤلفات احمد شفيق ـ آراؤه الاجتماعية والثقافية ـ صفاته ووفاته .

وقد عمد دارسنا في المقام الاول الى ان يجلو شخصية احمد شفيق ، وان يجيب على التساؤل الذي يشكك دائما بصورة ما في أصالة هذه الشخصية وطيب معدنها ، باحثا عن حقيقتها . لقد كان احمد شفيق يبدو في نظر الناس احد رجلين ، رجل الحاشية الامين لسيده الى درجة انمحاء الذاتية . او الوطني الغيور الذي شاء له سوء طالعه ان يوجد وسط دسائس القصور . ومن المبالغة في كلتا الصورتين اهتزت ملامح صاحبنا . وقد حاول د. رفاعي ان يحدد الملامح الحقيقية الثابتة ، فقدم هذه الصورة الدقيقة التي تبلور حقيقة المترجم له ... « كان أحمد شفيق كسائر موظفي السراي في ولائه لعباس ، ولكنه كان في ذلك ينزع عن طبيعة خاصة قوامها مزيج من حبه للخير والاعتدال والشعور بالكرامة . وقد أثر ذلك في مقدار ذلك الولاء له فكان ولاء سلبيا في كثير من الحالات من حيث اتجاه عباس وانحرافه عموما ، عن هذه المبادىء ، وايجابيا في اتجاه الخديو لمقاومة الاحتلال مثلا او مع الصالح العام . فلم يكن ولاؤه بهذا لعباس حرفيا دائما ، ولكن في اطار هذه النزعة التي كانت ترتكز على هذا المزيج من المبادىء . وكانت تلك واضحة في حياته الرسمية والخاصة على حد سواء بشكل أضفت على آثاره ثقة واتزانا . » ( ص ٢٠ ) .

وقد تميز بحث د. رفاعي بسمات معينة أهمها ، محاولته الدائمة ربط كل حديث يتناول احمد شفيق سواء في خصوصياته او عمومياته بمنهج الرجل في كتابته التاريخ واضفاء روح الثقة بامانته وعدله وحياده . فذاتيته مثلا ازاء شخصية الخديو عباس انعكست باتزانه في تاريخه ( ص ٤٨ ) ، واخلاصه الوطني في موقف كاصلاح الازهر ( ص ٣٤ ) لون مذكراته التاريخية بنفس العنصر .. وهكذا . الى الدرجة التي يعقب فيها مؤلفنا على هذا كله بقوله .. لقد ارتبطت حياة النشأة والاعداد والحياة العملية والتدرج في مناصبها بمختلف ألوان النشاط ، بحياته كمؤرخ ، فكانت الحياة الاولى جزءا منها منذ ان كانت السبيل اليها . كذلك لم يعمد دارسنا الى التمحل في تحليل مواقف المترجم له وسلوكه وتجديدها بقوالب صارمة متعسفة . بل عمل على متابعة تطوره وما يكشفه ضغط الاحداث على هذا التطور بما تملي من اتخاذ موقف تقليدي تستند به أجواء البلاط او متطور تفرضه عليه أخلاقيات صاحبنا الشخصية .

وبطريق غير مباشر يثير كتاب د. رفاعي بأسلوب تناوله قضية هامة هي ، اعادة كتابة تاريخنا الحديث ، وهل من الضروري او المحتم حقا ان نقوم بهذه المهمة ام لا . فيقدم دليلا طيبا على ان المضمون مهما كانت موضوعيته فهو يتأثر بشكل ما بالعهد الذي كتب فيه . فالحقيقة حتى اذا استطيع قولها فهي يمكن ان تبتر او لا تقال كلها .. وان المؤرخ مهما كانت نزاهته فهو يرضخ بشكل او باخر لنظام الحكم المطبق في أيامه خاصة اذا كان الممثل له أي الحاكم مستبدا . ويعرض « احمد شفيق المؤرخ .. حياته وآثاره » اكثر من مثال على ان النظرة المتحررة بتأثير عهد مغاير تقدم المزيد من الحقائق والابعاد .

ويبدو ان مؤلفنا قد امضه الا يعرف القارىء العربي كثيرا او قليلا عن اعمال المؤرخ احمد شفيق ، فاتبع هذا الاسلوب الذي يعتمد على العرض التفصيلي لما يشتمل عليه كل كتاب وكل جزء خطه المؤرخ وخاصة الحوليات في تناول هذه الاعمال . وهكذا استولى هذا العرض التفصيلي على اكثر صفحات الدراسة ، مما التهم ـ اكبر الظن ـ حيزا غير صغير مخصصا لمنهج شفيق في التأليف التاريخي والى أي مدرسة ينتمي مع مقارنته بمؤرخينا المختلفين ... الخ .

والاشياء القليلة التي يمكن ان يختلف المتلقي مع د. عبد العزيز رفاعي بشأنها ، تنقسم الى لونين . الاول ويتصل بأسلوب الدراسة نفسه الذي لم يهتم اهتماما كافيا بالتعمق والمزيد من الدسامة واستكمال جوانب البحث مثل روح العصر ، وفكر أحمد شفيق ، ومدى تأثر المترجم له بالجبرتي .. الخ . وباعث ذلك على ما يبدو ان مؤلفنا لم يرد ان يقدم « احمد شفيق المؤرخ .. حياته وآثاره » لغير القارىء العادي . واللون الثاني ، هنات قليلة مثل ما يتعرض له في التعبير في بعض الاحيان من عدم استقامة حتى ليغمض المعنى . وكذلك اغفال بعض ملامح المترجم له كشفيق صحفيا عندما أصدر « صحيفة الاعلانات» او عندما كان يشرف على مجلة جمعية الرابطة الشرقية .

وعلى الرغم من هذه الهنات فلا ريب ان د. رفاعي قد وفق في تجسيد شخصية احمد شفيق ودراسة آثاره في الحدود التي رسمها لذلك .

**المنصورة ـ ج ٠ ع ٠ م** — **علاء الدين وحيد**



## ١ ـ ذكريات الحكيم

عرفنا معالي القاضي النزيه العادل الاستاذ يوسف الحكيم ( موظفا ) مرموق المكانة في كافة المراكز الحساسة التي شغلها ابان العهدين التركي والعربي و « وزيرا » مثاليا آمن بان الحكم تضحية وامانة .. و ( انسانا ) حمل بين جنبيه ضميرا حيا لينضح نزاهة ويتنزى تقوى.

وكان من جرأة هذا الشيخ الوقور ان اقدم غير هياب ولا وجل ، بينما تخلف غيره من ساستنا الذين عملوا في الحقل الوطني ، على تدوين مذكراته ونشرها في ثلاثة اجزاء ، وقد تناول في الجزء الاول منها « سورية والعهد العثماني » وفي الجزء الثاني « بيروت ولبنان في عهد آل عثمان » وفي الجزء الثالث تناول « سورية والعهد الفيصلي».

وكان الصيد الذي خرجت به من هذا الطواف الشذي الفوح موفورا دسما ، وكانت حصيلة مطالعتي لهذه الاجزاء الثلاثة دانية القطوف ، بالاضافة الى ظاهرة بارزة جديرة بالتنويه وهي انصاف الاستاذ الحكيم لفئات من حكام العهد العثماني الذين زاملهم وعمل واياهم في المجالين العدلي والاداري ، واطراؤه خصالهم الحميدة ، وترفعهم عن الرشوة ! بينما الشائع لدى من عاصروا العثمانيين وقرأوا تاريخ حكمهم انهم قوم قساة القلوب غلاظ الاكباد .. لا يترفعون عن اجتراح الموبقات واقتراف الآثام ، وانهم اوغلوا ، خلال حكمهم الاقطار العربية ، بسلب الخيرات ، وفرض الاتاوات ، وقبض الرشوات ...

لكن الاستاذ الحكيم يذكر بريشته التجرد والانصاف ان في عداد اولئك الموظفين الاتراك رجالا مؤمنين ... اعتصموا بحبل الله ، وعرفوا طريق الحق ، وحكموا بين الناس بالعدل ، وترفعوا عن صغائر الحياة، ونظروا الى مغريات الحياة نظرة استخفاف وازدراء !

والاسلوب الذي دون فيه الاستاذ الحكيم مذكراته جاء اسلوبا رفيعا ينم على انه اديب ذواقة يجمع بين الرواية والنكتة عمق الفكرة وبراعة الصورة ، ولو قدر له ان يتولى رئاسة تحرير جريدة يومية كبرى « كالاهرام » مثلا لكان كاتبا سياسيا لبقا بعيد النظر ، ينتظم وكتابنا السياسيين امثال ارسلان والجميل وبركات وجبران التويني وفتح الله الصفال ويوسف العيسى في سمط واحد .

والشيء الذي اركز على الاشارة اليه ان الاستاذ الحكيم تقدم بمفرده صفوف اخوانه العاملين معه في الحقل السياسي ، بينما تاخر هؤلاء عن تدوين ذكرياتهم ونشرها بدعوى حرصهم على صداقات تربطهم ببعض اخوان لهم ، وقد فاتهم ان المذكرات السياسية هي ملك للتاريخ الذي من ابرز مهامه اطراء حسنات المحسن وشجب سيئات المسيء .

ولا شك في ان ما اقدم عليه الاستاذ الحكيم يتميز بالاقدام والرجولة ، ولم يجاره في هذا المضمار ، اي في تدوين المذكرات السياسية ونشرها وهو على قيد الحياة ، سوى نفر قليل من رجالنا اذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : عبد الرحمن الرافعي واحمد شفيق واسعد داغر في مصر ، وطه الهاشمي وفاضل الجمالي وروفائيل بطي في العراق ، والدكتور عبد الرحمن الكيالي وحسن الحكيم وفتح الله الصقال في سورية ، والملك عبد الله بن الحسين في الاردن .

ولو حذا رجالنا العاملون في حقل القضية العربية حذو الاستاذ الحكيم لكان لهذه القضية رصيد غير هذا الرصيد ، ولعرف الجيل الصاعد وجوها نكثت بالعهد المسؤول ، وخانت الامانة وكانت عيونا وعسسا للاجنبي الدخيل !

بعد هذه العجالة لي رجاء اوجهه الى معالي الصديق الاستاذ يوسف الحكيم هو ان يتقبل ، باسم تاريخنا المعاصر ، تهاني من الاعماق على هذه المذكرات التي خلعها في ثلاثة اجزاء على المكتبة العربية ، وقد تميزت بالجراة وقول الحق والجهر بالصوت !

### ٢ ـ الحيـاة والشبـاب

هذا سفر جليل فرغت من مطالعته بهوس ولـذة وخرجت معجبا بالموضوعات الطريفة التي عالجها المؤلف بلباقة ، وساءلت نفسي عما حملني على الاعجاب بهذا الاثر الماتع فجابني الرد المنطقي فورا وهو : طرافة الموضوع ورشاقة العبارة التي خلعها المؤلف على فصول الكتاب!

كل هذه الخصائص اثارت في الاعجاب بهذا الكتاب الذي وضعه بالانكليزية الدكتور اريك تريمر ونقله الى العربية الكاتب الكبير معالي الاستاذ محمد اديب العامري وزير التربية والتعليم في الاردن ، وعرض فيه موضوعات طريفة جمعت الى بحث العمر الطبيعي للانسان معنى الايجابية وتفادي الجلطة ، او ما يسمونها الانسداد التاجي ، الى بحث السرطان ، هذا الداء المستشري ، وطرق التحايل عليه ، الى تجنب الهرم من عسر الهضم الى التهاب القصبات الرئوية ، الى تحديد الشباب والاخطار التي تنجم عن تقاعد الانسان بعد عمل طويل ، الى وجبات الطعام والفوائد التي يجنيها الانسان من التمارين الرياضية .

والنصيحة التي اتوجه بها للقارىء النابه ان يقرأ هذا الكتاب الطريف ، استاذا كان او طالبا ، والدا كان او اما ، طبيبا كان او مهندسا ، فهو يصلح لكافة الاعمار والفئات ، وبعد ان يتملى من موضوعه الطريف سيشاركني الاعجاب بقلم الاستاذ العامري الذي احسن الاختيار ، وابدع في النقل ، وسيتوجه معي الى شكر معاليه على هذه الطرفة المدونة ورجائه الاقبال على الترجمة والتاليف ، فمجاله فيهما رحب فسيح ، وسوقه دوما رائجة ، وتجارته رابحة ، وقطوفه يانعة شهية !

### ٣ ـ القاضي الجرجاني الاديب الناقد

هذه دراسة قيمة سخا بها قلم الاديب المثقف الدكتور محمود السمرة احد دعامات ادبنا المعاصر والعامل في حقل التاليف بصمت وهدوء .

وفي هذه الدراسة الممتعة تناول الدكتور السمرة ، احد اساتذة الادب العربي في الجامعة الاردنية ، القاضي الجرجاني ( ٩٣٢ ـ ١٠٠٠) وحاول ان يربط بين هذا الاديب وعصره ربط تفسير وتحليل وتعليل ، ويسعى الى جلاء آرائه النقدية وبيان مدى اصالتها ، وعقد صلة بينها وبين مثيلاتها في النقد الفني بالغرب .

والواقع ان الدكتور السمرة اصاب الهدف في كل ما ندب نفسه له ، وحسبه هذه الفصول الاربعة التي خص بها هذه الدراسة وكرسها لدراسة الجرجاني وعصره ، من سائر الابعاد والجوانب .

واذا كنت ايها القارىء الطيب القلب ممن طالعوا للدكتور السمرة عرضه الشهري لكل كتاب يتناوله بقلمه في مجلة « العربي » الشهيرة، فستضاعف غبطتك عندما تقبل على قراءة كتابه عن القاضي الجرجاني.. عندما تسهم معي في شكر الدكتور السمرة على موضوع طريف كشف لك فيه عن نوافذ جديدة للنقد تكسب ادبنا المعاصر صحة وعافية ، وتعود عليه بالتجدد وتطلعك على براعة الحديث عن نظرية السرقات الادبية وانواعها ، قبل الجرجاني وعنده ، ونظريات السرقات الادبية عند الاوروبيين والعرب .

وقبل ان اعود الى شكر الدكتور السمرة وهز يده ، اهمس في اذنك قائلا : حذار ان تفوتك مطالعة الكتاب الذي نحن بصدده !

### ٤ ـ ادباء الكويت في قرنين

من لقي الاديب الكبير والشاعر الرقيق الاستاذ خالد سعود الزيد ، احد دعامات ادبنا المعاصر في الكويت ، عرف فيه الغيرة على موطنه وجنوحه الى المفاخرة بكل اثر من اثاره .. حتى « الامثال العامية » فقد اولاها « خالد » اهتمامه وصنف فيها كتابا ضخما دون فيه الامثال العامية في القطر الشقيق وقارنها بما يقابلها من امثال عربية او آيات قرآنية او احاديث نبوية .

والكتاب الذي نحن في الحديث عنه هو الجزء الاول من سلسلة « ادباء الكويت في قرنين » وقد استهله المؤلف بفصل عن تاريخ الحركة الفكرية في الكويت خلال اربع مراحل ، وخلص منها الى تسجيل ترجمة لحياة كل شاعر او كاتب كويتي ، وعززها بنماذج من نظم ذلك الشاعر او نثر ذلك الكاتب ، ايمانا منه بان نتاج كل اديب هو مفتاح شخصيته، وعنوان بيئته .

وتعميما للفائدة التي توخاها الاستاذ خالد فقد ذيل كل فصل باسماء المراجع التي يعول عليها في كتابة ذلك الفصل ، واهم ما اعتمده في هذا السبيل المخطوطات التي دونها المرحوم والده سعود بن محمد الزيد بقلمه والمراجع الادبية والتاريخية التي احتفظ بها ذلك الوالد الماجد في خزانة كتبه العامرة .

لا شك في ان العمل الذي اضطلع به الاستاذ خالد الزيد لعمل جبار يستحق التهنئة من كل اديب اصيل في البسيط العربي ، وتقدير الدولة لهذا الجهد المبارك ، وليتقبل منا الاخ الزيد تهنئة قلبية مشفوعة برجاء وهو اخراج بقية الاجزاء من موسوعته الكبرى ، وسيذكر تاريخ ادبنا المعاصر اي جهد اجترحه الاستاذ خالد بمفرده ... وسيقابل هذا الصنيع بالشكر والتقدير والاطراء .

### ٥ ـ القومية والانسانية : في شعر المهجر الجنوبي

في عام ١٩٦٤ قدمت الاديبة النابهة عزيزة مريدن رسالة الى جامعة

القاهرة عنوانها « القومية والانسانية : في شعر المهجر الجنوبي » فنالت بهذه الدراسة درجة الماجستير بتقدير اللجنة الفاحصة .

وفي ربيع عام١٩٦٧ اعدت هذه الباحثة الواعية رسالة الى جامعة القاهرة عنوانها « القصة في الشعر العربي المعاصر » فاحرزت باثرها النفيس هذا الدكتوراه مع مرتبة الشرف الاولى .

قابلت الاوساط الادبية الراقية في مصر وسورية ولبنان والاردن موسوعة « القومية والانسانية : في شعر المهجر الجنوبي » بالاطراء والتقدير واثنت على الجهد الذي بذلته الاستاذة مريدن في تصنيف هذه الموسوعة المهجرية التي تتالف من ٦٧٠ صفحة من القطع الكبير وتشتمل على خمسة فصول مطولة . وقد تناولت في الفصل الاول « البيئة الجغرافية والادبية في المهجر الجنوبي » وجاءت فيه على تاريخ قصة الهجرة العربية وبواعثها واسبابها الى العالم الجديد . وفي الفصل الثاني تناولت « الوطنية في شعر المهجر الجنوبي » وصورت اللواعج التي تركتها نار الهجرة في نفوس الشعراء من حنين الى اوطانهم وديارهم ولهفة الى والديهم واحبابهم ، الى تذكر أيام الطفولة في مدارج صباهم . وفي الفصل الثالث صورت الاستاذة مريدن « الشعر القومي » والانتفاضات العربية في منظوم الشعراء العرب في المهجر الجنوبي واندفاعهم في دعم الحركات القومية وتأييد الكفاح العربي ضد الاستعمار الغشوم . وفي الفصل الرابع تناولت الاستاذة مريدن باسهاب « الانسانية في شعر المهجر الجنوبي » وتبسطت في تصوير ابعادها وجوانبها . وفي الفصل الخامس تحدثت عن « الخصائص الفنية لشعر القومية العربية » وجالت في هذا الفصل جولات موفقة وصورت الصدق في التعبير والتصوير الفني الحركي في الصورة والمطالع الحماسية المجلجلة .

هذا تعريف خاطف بالملحمة المهجرية التي قدمتها الكاتبة البارعة الاستاذة مريدن للخزانة الادبية العربية وانا لمنتظرون اثرها النفيس « القصة في الشعر العربي المعاصر » بفارغ الصبر .

## ٦ ـ مذهب الموحدين

عندما كسر صديقي الباحث الكبير الاستاذ عبد الله النجار الجليد عن كتابه المغلول « مذهب الدروز والتوحيد » واذن له بالخروج الى عالم النور وزفه الى قراء العربية في طبعته الاولى كتبت لسيادته اقول :

« كشفت يا صديقي للناس النقاب عن ماهية مذهب سمح يعز على كل عربي ان يتمطى في قمقمه ، وتنسج حوله الاساطير . ولقد أبت عليك مرؤتك المعهودة الا ان تجلو الرغوة عن هذا المذهب الطهور ، فتؤرخ له ، وتكشف للقارىء ، عربيا كان او غربيا ، عن اصوله . فاضفيت على المكتبة العربية سفرا جليلا ، واسديت للمذهب الدرزي السمح خدمات منها :

١ ـ الكشف عن جوهره الصافي ، ٢ ـ هدم ما حاكه الخصوم وبعض المستشرقين المغرضين حوله من روايات ملفقة واسانيد باطلة وافتراءات رخيصة . فذوو العقول النيرة في العالم العربي يقدرون عملك ، ويمجدون الرسالة التي اديتها لامتك في صدق واخلاص ! » .

واستكمالا لهذا الموضوع الطريف صورة واطارا اعاد العلامة النجار طبع كتابه باسم جديد هو « مذهب الموحدين : الدروز » فجاء في طبعة موسعة منقحة وصارح اخونا عبد الله المتسائل من أهل بيته وخارجه بقوله :

« ... ومن اولى من اصحاب البيت بتلبية نداء العلم ، وفتح الباب على مصراعيه ، ولو كره المطمئنون خلف جدرانه . ففي ذلك تحقيق لرغبة المستطلعين ، ومعظمهم من ابناء هذا المذهب نفسه . فقد سالني العدد العديد منهم عما انطوى عليه ، وما نسب اليه ، وما الفائدة من الانتماء الى ملة دون الاعتزاز بها ، كمن يحمل اسما لا معنى له ؟ وكيف يدين المرء بالولاء لما يجهل ؟ او يحب ما لا يعرف ؟ كالابن الذي يطلب منه ان يحب والدا لا يعرفه !

ما اكثر ما جر الكتمان على اصحابه من اجتراء وافتراء ، وتمويه وتشويه . وهو الجزاء العدل لمن ترك لسواه الكشف عما انطوى عليه ، ولم ينبر لتصحيح ما اتهم به وسدد اليه ، في فوضى اختلاط الغث بالسمين ، والانيض بالفريض ، واستسلام الاخذ للعطاء ، دون تمحيص او استقراء ! » .

لو كنت املك جائزة ادبية شهرية كما يملك سعيد عقل مثلا ، لوجهت جائزتي هذه ، بلا جلبة او ضوضاء ، الى سيادة الاستاذ الكبير عبد الله النجار ، تقديرا لكتابه المفيد الذي صور فيه مذهبا سمحا طهورا ، واماط فيه اللثام عن جواهر ظلت في القوقعة زمنا طويلا ... حتى جاء هذا الحكيم البصير فجلا بقلمه الصدأ عنها وقال للناس : « دونكم هذه الجواهر ... قضوا وتملوا من وهجها ! » فوقف الناس مبهورين وازالوا القذى عن عيونهم وتملوا من بريق تلك الجواهر !

ليتقبل سيادة الصديق النبيل الاستاذ عبد الله النجار شكر أهل القلم على هذه الدرر الوهاجة التي قدمها لمواطنيه بتواضعه الذي عرفناه من ابرز صفاته ، وهي صفات توفرت في العالم المتطامن النفس، الرفيع الخلق !

## ٧ ـ العروض

درج الشاعر الكبير الاستاذ محمد العدناني على نشر مجموعة من دواوينه باسم « العدنانيات » واختار لكل ديوان منها اسما يدل على ذوق شاعرنا ورهافة حسه . واخر ما سخا به قلم العدناني على دولة الشعر ديوان اطلق عليه اسم « الروض » وهو الخامس من سلسلة « العدنانيات » وقد اشتمل على انواع جديدة من الشعر المتسم بالرشاقة والحكمة والاخوانيات والتهكم ، ولو طالبني القارىء اطلاعه على نموذج من شعر هذا الديوان الحافل بالطرائف والمباسطات لاخترت له دعابة شعرية ارسلها العدناني الى صديقه العالم الدكتور قدري طوقان وقد مهد لها بقوله :

« ... وهو في قصر القامة آية ، وفي القبح غاية ، وفي الظرف والذكاء لا نهاية ، والقصيدة الآتية نظمتها في ليلة سمر بنابلس :

| | |
|---|---|
| اطلت ليلة القدر | علينا الان يا « قدري » ! |
| اهذا وجهك البادي | لنا ، أم طلعة البدر ؟ |
| هجرت الشعر من حين | فمالي عدت للشعر ؟ |
| وكان الغيد قد زود | تني بالغزل البكر |
| فخاض القلب من بحر | عروضي الى بحر |
| ولكن بعدما أمسى | بفودي الردى يسري |
| شهرن الهجر في وجهي | فعاذ القلب بالهجر |
| فلم انظم بحواء | نسيبا عابق الزهر |
| فما لي عدت مفتونا | بنظم الشعر في نمر |
| فهل أصبحت شيطاني | لتحييني مدى الدهر ؟ |
| فتوحي يا شقيق الروح | لي آي الهوى العذري |
| فانت البحر في مد | ولست البحر في جزر |
| وانت القلب يا ( قدري ) | يناجي أضلع الصدر |
| وأنت الحسن ، فالعينا | ن تزدانان بالسحر |
| ولولا خدك الوردي | عفنا طلعة الفجر |
| وطي الثغر ياكل المنى | سمطان من در |
| وهذا الجيد لم تعرفه | الا ظبية القفر |
| فسبحان الذي أعطاك | هذا الحسن يا ( قدري ) ! |

عمان ـ الاردن

البدوي الملثم




## لقاء مع الشاعر المهاجر جورج صيدح

على بعد كبير ، وابعاد ضاربة في التيه ، استجاب الشاعر المهاجر جورج صيدح لي في اللقاء معه ، على صفحات هذه المجلة ، واني وان كنت اريد ان اجلس معه جنبا الى جنب ، واحادثه شفاها ، الى انني والحق يقال : قد قضيت معه هذا الشطر من الحديث وكأني احادثه وهو يسمع الي ، أملي وهو يجيب ، كما لو كنت بجانبه ، اجلس معه الى مائدة واحدة .

والواقع ان جورج صيدح الذي يرقع شيخوخته الان بالمستشفيات والرحلات ، بعد ما طلق الشعر ثلاثا ، الا ما كان يحنث فيه من ابيات تتدفق بين يديه ، وتأبى الا النشاز ، والخروج على القسم وتتحدى المقسم به ، يستجيب ، بالرغم من لواذه بالصمت ، الى الافاضة في حياته ، ونبش ماضيه ، ويعرض ما عن له ، او وقع فيه ...

والشاعر العظيم الذي ملأ الدنيا تغريدا ، وأسهم في دراسة اللغة والادب ، لا يحب التواري ، او اخفاء فجوة في حياته ، تعد ثلمة في عيون الشانئين او الراصدين لمعايب الاخرين . وانما يهمه ان يعرض نفسه بما فيها من خير وشر ، وحلو ومر ، ليكون مثلا وقدوة ونبراسا ، ورسولا ، يهتدي به السائرون في دنيا الادب ، والضاربون في صحراء الفكر ، والتائهون في بيداء القريض على وجه أخص .. فحياة جورج صيدح ورفاقه من المهاجرين الاولين ترسم خطوطا عريضة في افق الدراسة الادبية الجادة ، وتعين على قطع طريق الحياة الشاقة التي بلاها هؤلاء المهاجرون في ديار الغربة ، يوم ان كانت هذه الديار ، ضربا من الخيال ، والعيش في اكنافها نوعا من المحال ...

ـ متى بدأت نشر شعرك وفي أي المجلات او دوريات الادب ؟

ـ بدأت نشر شعري في جريدة .. الاخطل الصغير عام ١٩١٠ ، اذ كنت قد دفعت قصيدتين : الاولى بعنوان : « اذكريني » ، لحنت وغناها المطربون ، ونالت الاستحسان في كل مكان ذهبت اليه وقتذاك ، واعتقد انها تنال استحسانك انت واستحسان كل من يقرؤها اليوم ، لانها تنال استحساني كلما أعدت تلاوتها ، او عثرت على ابياتها بين قصاصاتي التي أجمعها من هنا وهناك ، وان كانت تأبى الامتناع ، وتصر على السفر الى اقطار الارض في مكاتب المحبين والمقدرين :

اذكريني واذكري الحب معي واذكري ما مر في تلك السنين
اذكريني واسألي قلبك كم تسحق الذكرى قلوب العاشقين

اما القصيدة الثانية ، فكانت بعنوان : « غرام » ، وهي قصيدة اذا طالعها من لا يعرفني ، يعتقد انني كنت رجلا ولها ، تركته حبيبته ، فتألم من هذا الترك ، واصبحت جوارحه تشكو هذا الغرام ، حتى أمسى له افئدة جلى ، تألم وتشكو في كل مكان من جسمه :

أصبحت من جور الصدود تخالني شبحا اذا مر النسيم تألما
تشكو الغرام جوارحي فكأن لي في كل جارحة فؤادا مغرما

على انني كنت أنظم شعري بالسجية ، فلا اتعهد تقليد احد ، وان كنت قد تأثرت بشعر شوقي اولا ، وشعر ايليا ابي ماضي ثانيا ، ولا اكتمك الحق اذا قلت لك : انني كنت وانا بعد تلميذ في المدرسة احفظ قصائد المتنبي دون ان افهمها ، لمجرد شغفي بموسيقاها ، فلما اتسعت مداركي وازداد اقبالي على الشعر ، ورحلت الى مصر ، انصرف اعجابي الى شعراء الرقة والعذوبة والبساطة والمجون كأبي نواس ، وابن الرومي من القدامى ، واسماعيل صبري ، وحفني ناصف وطانيوس عبده من المعاصرين .

ولقد اتسع الافق امامي في مصر ، ووجدت بيئة صالحة لنشر انتاجي ، ولا سيما مجلة « سركيس » التي لا تكاد مجموعة من مجموعاتها تخلو من قصيدة لي وان كنت منصرفا الى تجارتي بكل قواي ، لا حبا لها او ابتغاء الثراء بل حفظا لكرامتي بين اهلي وعشيرتي الذين كانوا يخافون علي من ضربات الزمن ، وكساد التجارة ، فاعود اليهم مثقلا بانواع الهموم ، وأحمال الديون .

والواقع ان الاب « سارلوت » الذي خلف الاب « ساليباج » على رياسة « عنطورة » كان يوصيني بمتابعة دراستي الى درجة الدكتوراه ، وكتب الى اهلي راجيا منهم قبول طلبي بدراسة الحقوق قبل ولوج ميدان التجارة ، فلم يقبلوا ، ورضيت بقسطي على مضض ، وسرت في هذا الميدان الفسيح لا الوي على شيء ، ولا يهمني الا نجاحي في ميداني ، حتى كنت أبخل على نفسي بساعة انظم فيها الشعر او اطالع فيها كتابا ، اللهم الا في فترات المسير من البيت الى المتجر او في ساعات السفر في القطار ، وان كان الجو الادبي الذي ساد مصر في تلك الحقبة قد أثر في ، وتأثرت به ، فقرات الكثير ، وطالعت جل ما نشر في الصحف والمجلات والدوريات نثرا وشعرا ..

ـ قلت : انك كنت حريصا على النجاح في تجارتك ، فكيف أفلست ، وكنت اشد حرصا على الاشارة اليك في ميدان الادب ، فما هي الاسباب التي جعلت تجارتك تكسد ، وما هي نفسيتك عندما انتقلت الى جو غريب عليك في ثقافتك ؟؟

ـ كان انتقالي من مصر الى اوربا :الى هذا المحيط التعس ، حدثا مفجعا في حياتي وزادني غما حال احواني المهاجرين الذين أضاعوا لغتهم ونسبهم واعتنقوا الجنسية الفنزويلية لحماية كيانهم ومصالحهم ، حيث لا سفارة ترعاهم ، ولا راية تحميهم ، ونظرا لقلة عددهم ولتفرقهم في انحاء البلاد لم تتجاوز مساكنهم ومتاجرهم في حي واحد كما في بقية المهاجر الامريكية ، لذلك لم يتعارفوا ويتآلفوا ، بل تشتتوا فرادى في أحياء الشعب الفنزويلي بل اندمجوا فيه ، واعتادوا الكلام بلسانه ، حتى ثقل عليهم اللفظ العربي ، واصبحت اللغة الاسبانية لغة الحديث في كل شؤونهم داخل بيوتهم ...

وحسبي ان اقول لك ان هذه الظاهرة قد صدمتني في عاطفتي وفي آمالي . اذ شعرت بقساوة الغربة ، وفداحة التضحية التيفرضت علي .. ففي مصر فتحت مجلة « سركيس » صدرها لقصائدي ووصلتني بطائفة من الادباء الكبار :

مطران ، انطون الجميل ، بركات ، الدكتور محجوب ثابت ، احمد زكي باشا الذي كان يجلس في منزله لاستقبال الادباء بعد الفراغ من عمله ، كما كان يتاح لي التادب بالمطالعة ساعات الليل ، وهذا العصر الذي امضيته في القاهرة ، كان عصر ازدهار الادب العربي في مصر ، بلغ فيه الشعر أوج مجده ، وراجت سوق عكاظه رواجا فريدا ، فكنت احضر حفلة لتكريم شوقي وحفلة لتكريم حافظ واخرى لمطران او الريحاني ....

ولقد دعيت مرة الى القاء قصيدة في احدى تلك الحفلات ، وشعرت باني لو عقلت لأوجدت لنفسي حيثية ادبية في ذلك المجتمع الراقي ، ولكن مع الاسف كان طيش الصبا مسيطرا علي ، وكان اغراء اللذات أشد وأقوى من تلك الحوافز الادبية ، فاخفقت شاعرا كما أخفقت تاجرا !!

في « الازبكية » آثار لعربدتي وفي « الجزيرة » أصداء لانشادي
الزهر في «القبة» الخضراء متكيء والبدر في القبة الزرقاء قوادي
وصاحباي : جمال جائع وهوى صاد قد التقيا في ارض ميعاد

اما اخفاقي في تجارتي ، فيرجع الى انني دخلت اليها باجنحة متكسرة ، لا تكاد تحملني على التحليق في سماوات الفني والعـز ، واحقق ما كنت اصبو اليه على الرغم من انني صرفت وقتي كله اليها ، ولم اضن على الذهاب الى المتجر بيوم واحد ، حتى احقق ما عقدت العزم عليه ، وما اوصاني به اهلي من عدم اللعب ، والبعد عن مغريات القاهرة ، وفاتنات النيل ، الا انني بقدر ما خسرت في هذه التجارة ، بقدر ما كسبت من الاصدقاء والمعارف ، وبقدر ما تسلحت بهذا السلاح الفكري الذي اذود به عن نفسي الان وانا في شيخوختي ، وسـيري حثيثا مع الايام ....

ـ ما رأيك في الشعر بعامة بعد اقامتك في باريس ، هل يستطيع ان يكمل نفسه ام يكمل الشعر الفرنسي ؟

ـ الشعر المعاصر اجمالا ، فيه الأصيل والدخيل ، وفيه القديم والحديث ، وفيه النظامي والفوضوي . وأنا لا استطيع الجواب علـى هذا السؤال ما لـم افصل الشـعر الكلاسيكي المعاصر عـن الشعر « البولشفيكي » فالشعر الكلاسيكي يستطيع ان يكمل نفسه ، ولا يمت الى الشعر الفرنسي بأية صلة ما خلا صلة التعارف والتبادل الثقافي .. ولقد نمت حيوية هذا الشعر في عمره المديد بما اختزنه من خبرةومعرفة، وبما اكتسبه من مرونة في معاصرة الأولين والاخرين من عشرة قـرون مما جعله اليوم كامل الرجولة ، مؤهلا التأهيل الواجب لهذا الاستقلال الذاتي ، بل هو مستعد لمجاراة هذا العصر في التطور الحضاري الذي يحيط بالعالم اليوم ..

اما الشعر الموجة الجديدة ، فالقليل الذي أفهمه منه لا يعطيني حق الحكم عليه أوله ، ولكني أرى ، ان هذا اللون الذهني الفلسفي المتسرب الى الشعر العربي منذ عهد قريب ، لايكمل نفسه بنفسه ، بل يكمل نفسه بعناصر غريبة تتداخل فيه ، ولا يكمل الشعر الفرنسي الذي يستغنى عنه ولا يتأثر به وان كان يؤثر فيه .

على ان مـن الجائز في مقبل الايام ، اذا بلغ الرشد ، واستوى على جادة الشعر ان يقرر مصيره بنفسه ، وفي هذه اللحظة ـ لحظة اشتداد عوده ، يكون بين عاملين لا ثالث لهما ، اما ان يتنكر للجذور العربية الاصيلة ويرتمي في احضان الغرب واما ان ينزع الوصاية عـن عنقه ويعود الى ساحة الضاد الفسيحة ، ويمشي في بلاد العروبة ويتنسم عبيرها في شوق ، بعد طول اغتراب والتياع ..

ـ ما هي المشروعات الادبية التي تنوي في الوقت الحاضر القيام بها ، او قمت بها فعلا ولكن لم تظهر الى الوجود ؟

ـ المشروعات كثيرة وينقصني عزم الشباب لانجازها ، وان كـان اهم ما يشغلني اليوم ، العثور على اسم ملائم لهذا النوع مـن الاداء المستحدث الذي يسمونه خطأ « الشعر الحر » . ومتى وفقت الى الاسم المطلوب ، اعلنته بكل شجاعة واقترحته بكل احترام على شـعراء الموجة الجديدة الذين انتشروا في كل ارجاء الارض ، ولا هم لهم الا الدعوة لهذا الشعر ، وبث التعاليم لاعتناق مذهبهم في كل مكان ..

ولا ريب في ان الذين يحاولون هذا الشعر ، ويدعون لتحطيم الشعر القديم ويزدرون بقواعده وقوالبه وقوافيه ، لا يليق بهـم ان يطلقوا كلامهم على لفظة « شعر » بل اولى لهم ، ان يطلقوه على هـذه الكلمة مقلوبة فيقال « الرعش الحر » واقترح كذلك كلمة « منظـوم » وان شاؤا التفخيم فلتكن « باشمنظوم » او على الطريقة الفرنسيـة « سوبر اوم » .

ـ ما هي حكاية دواوينك الثلاثة : النوافل ـ النبضات ـ حكاية مغتـرب ؟ ..

ـ كنت في « كراكس » أصفي أشغالي التجارية ، وأحول كـل نشاطي الى خدمة القضايا الوطنية منذ ابتداء الحرب العالمية الثانية ، وان كنت لم انس الاشتغال بالادب ، فقد كان في مكتبي ملف ضخـم يرافقني منذ عهد الدراسة اجمع فيه قصاصات القصائد التي أنظمهـا وانساها ، جعلني اقدم على الاتفاق على طباعته واخراجه كما احـب وأريد ، فانطلقت يد المشرف على هذا العمل الادبي بكل سخاء ، ونمت على حرير ، ولكن النوم طال الى منتصف عام ١٩٤٧ ، ودنا موعد سفري مـن فنزويلا الى الارجنتين .

ولما وصلت بوينس ايرس في خريف ذلك العام ، كان الديـوان مطبوعا ومعدا للتجليد في مائتي صفحة من الورق الرخيص والطبـع السقيم ، وكانت الاغلاط المطبعية التي ارتكبها الناشر ، اضعاف الاخطاء اللغوية التي ارتكبتها وانكى من ذلك طبع محتويات الملف كلهـا دون غربلة ولا عناية بالاختيار ، مما اطلق علي سهام النقاد ، وبالرغم مـن نبالة الغرض المقصود من نشر هذا الديوان .

اما « النبضات » فهو عبارة عن ثمان وثلاثين قصيدة ، صدرت في حلة فخمة فضفاضة مزينة بثمانية رسوم ، وان كانت الاخطاء قد قفت على الديوان ، وجعلته اثرا غير صالح للقراءة ، ولكنني كنت قد اعلنت عن صدوره ، ووعدت الاصحاب بهدايا منه ، فاخذت اصوب الاخطـاء بخطي في كل نسخة قبل ان اهديها ، واكرس ساعتين في اليوم لتصحيح أربع نسخ حتى بلغ ما صححته واهديته مئتي نسخة ، ثم عراني الملل ، وندمت على هذا العمل في ديوان قبيح مشوه لا يليق بمهديه ولا بالمهدى اليه ، فاتلفت ما بقي من النسخ ، وترحمت على المال وعلى الجهـود والآمـال .

على ان « حكاية مغترب » ، كانت نتيجة الصدمتين اللتين اصابتاني في « النوافل » و « النبضات » وتركتاني بلا سلاح ادافع به عن نفسي على صعيـد الشعـر ..

والواقع ، ان الصديق الاستاذ يوسف الخال ، اقنعني بانني لـن اقف على قدمي ، وانتصف لنفسي الا اذا اصدرت ديوانا جامعا يمثلني بشكله ومضمونه ، ودفعت به الى الاسواق حتى يعرض للبيع فـي المكتبات ، ويرى القراء للمرة الاولى ديوانا يحمل اسمي ، فادركـت وجاهة رايه ، ولكنني اعتذرت لظروف حياتي التي تضطرني للسفر الى باريس بعد شهر ، فلا أشرف على طبع الديوان ، واتعرض لمأساة ثالثة اذا طبع الديوان في غيبتي ، فكان جوابه مفحما ، نقل الى نفسي ثقته بنفسه ، اذ اراني نماذج المطبوعات ومعدات الطبع وامكانيات العمـل في دار مجلة « شعر » واخذ على نفسه مسئولية التصحيح ، متعهـدا بالا يقع في الديوان خطأ مطبعي واحد ..

ولقد وضعت في هذا الديوان خمسين قصيدة ، واضفت ثمانـين قصيدة قديمة اخترتها من ديواني : « النوافل » و « النبضات » ، فكان نماذج مـن منظومي في مختلف مراحل العمر ..

ـ هل تنصح الاديب اليوم بان يقنع بالقديم ويسير على نهـج الاقدمين في المنظوم والمنثور ؟

ـ لا يمكن ان اطلب من أديب اليوم ، ان يقنع بتقليد البستاني ، والشرتوني ، واليازجي ، ويتفانى في القناعة ، ولكني أحض كـل أديب على ان يفنى في رسالة الادب دون انصراف الى نزعة او شـهرة ، او استعجال الى قطف الثمار ، وهي لم تنضج بعد ..

وانا ادعو الى الثورة على الكسل والتفاهة والارتجال والخلاعـة والانانية والمنجهية والاقليمية الضيقة التي تفتك جراثيمها بادبنا ، وتحيله عودا يابسا ، لا روح فيه ولا حياة ..

ـ الاحظ فيه انفعالات الشباب واندفاعه ، وحرصه على حياة افضل في كل منحى من مناحيها ؟

ـ ومن قال انني عجوز .. ان حياتي كلها شباب وقوة واندفاع ومخاطرات ومن يعيش في ظل هذا التنقـل ، ويشغف بالرحـلات ، لا تصيبه الشيخوخة ابدا ، وان بدت على جسده ، فلا يمكن ان تبدو على ادبه وعواطفه ونبضاته وشعوره .

ـ اذن ، لك مراح ومغدى في العواطف ؟

ـ اخفقت مرارا في هذا الميدان ، الى ان ضبطني صديقي جورجي حداد في واقعة من الوقائع ، فنظم ملحمة رقيقة ، هي بين يدي القراء ، ليعلموا انني دخلت كل ميدان ، واصابني النجاح بقدر ما اصابنـي الفشل ، وان كنت أحمد الله على بقايا قلبي الذي ينبض اليـوم ، بما كنت أتوق اليه بالامس وأجري وراءه وأنا اخضر العـود ، غض الاهاب ، أحب الجمال وأسعى اليه .

أي عـين سحرته اي عـين
فجفـا النـوم وراعى الفرقدين
مغرم حاول كتان الهـوى
فاذاعته دمـوع الناظريـن
أمرد غض الصبا ، عف المنى
ماجد الاصل ، كريـم النبعتين .
فتنته ذات حسـن باهـر
أوشكت تفتن زهر الفوطتين .

**القاهرة** — **ابو طالب زيان**

●

## « الجمهورية » مع رائد الشعر الطلق

خلال الستة والعشرين عاما الماضية صدرت مئات الصحف والمجلات الادبية في الوطن العربي ، توارى معظمها عـن انظار القراء ، ولـم تثبت في هذا الميدان الا مجلات محدودات .. فمعاناة الادب والصحافة معاناة ثقيلة قل ان يستطيع احد تحمل اعبائها مدة طويلة من الزمن .

وقصة الاديب العربي ألبير اديب صاحب مجلة « الاديـب » البيروتية قصة فريدة في ذاتها .

لقد ثابر هذا الاديب من اجل ان يجعل من مجلته نموذجا فريدا في نوعه ، اذ واصل اصدارها منذ عام ١٩٤٢ حتى اليوم ، واتخـذ لها خطة تكاد تكون ثابتة رغم مضي هذه المدة غير القصيرة في الوقت الذي الفنا فيه تغير مواقف وأشكال ومضامين كثير من الصحف .

والبير اديب هذا يعتبر بحق رائد الشعر الطلق في المدرسـة الشعرية الحديثة وقد نهج نهجه كثير من شعراء الطليعة ، عـرف بموهبته المبدعة وعطائه الجنم .

له مجموعة شعرية بعنوان « لمـن ؟ » هي تعبير عن تجارب عاش بعض حوادثها وصور البعض الاخر بقلمه وقلبه ، وهي مثال صادق لواقع الحياة العربية .. فيها مـن الصور ما تهز المشاعر .. كلماتها ذات معنى غني .. افكارها .. افكار شباب خضراء .. وعواطف مـن صنع فصل الربيع .

### مجلـــة الاديـــب

ومجلة ـ الاديب ـ التي يصدرها البير كانت وما زالت منذ ستة وعشرين عاما مدرسة كبرى لاعداد وتخريج الكتاب والشعراء .

لقد عانى البير اديب اعباء الصحافة والادب وحمل بين يديـه وعلى كتفيه طوال تلك المدة متاعب كثيرة . ولا شك انه لامـر عسير ان يصابر اديب لوحده في ميدان الادب كل تلـك السنوات .. رغـم كل الاعبـاء .

فالبير اديب يصدر وحده تلك المجلة التي مـا ان تتصفحهـا حتى تتصور ان هناك هيئة كبرى تتولى اصدارها .. ولكن « اديب » وحده في عمله .. بل لم يتخذ للمجلة مكتباخاصا ، لقد اكتفى بغرفة خاصة في بيته لتكون مكتب المجلة .

وفي بيته .. في بيروت ، وفي الغرفة المخصصة لاصدار المجلة كان لي لقاء مع البير اديب .. وكانت قضايا الادب والصحافة محور حديثنـا .

### الشـــعر الحديـــث

تحدث الاستاذ البير فيما تحدث عن الشعر الحديـث غير التقليدي المتمثل في الشعر الطلق والشعر الحر والقصيدة النثرية فقـــال :

لا شك ان ذلك التجديد في هذا اللون من الشعر يعود الـى سنة التطور ، ومـن المؤسف ان اكثر النقاد يحكمون سلفا على هـذا الشعر سواء منهم المؤيد او الهاجم ، مع ان المستقبل وحده هـــو الكفيل في تقييم هذه الالوان مـن الشعر الحديث ، الا انه من المؤكدان كل تجديد سواء أخفق ام نجح هو دليل على التطور والحيوية وان كل جمود هو تخلف .

### مســتوى الشـــعر

وسالته عن رأيه بمستوى الشعر العربي الحديث بعد ان ظهر الى الوجود واصبح حقيقة واقعة ، فقال :

هذا سؤال وجيه ، فلا شك ان الشعر الحديث كاي لون مـن الوان الادب يساهم فيه موهوبون ودخلاء .. والاصالة والاجـادة والابداع هي المقاييس التي يجب ان نحكم بموجبها على النتاج ، غـير ان المؤسف ان نرى كثرة المتطفلين على هذا اللون الادبي ظنا منهم ان التحرر مـن الوزن والقافية بمعناه ان بوسع اي كان ان يكتب على هواه باعتباره شعرا . واخذت الصحف تنشر النتاج الفاشل مما اساء الـى النتاج الاصيل ، ولكن مـن البديهي اننا نستطيع بعد التمحيص غربلة ما نقرأ .. والاصالة والابداع والاجادة هي التي تخلد القصيدة سواء

كانت كلاسيكية ام حديثة ... فانا قد اعجب بقصيدة تتوفر فيها مثل تلك الشروط كتبت قبل الف عام وقد لا اعجب بقصيدة حديثة .. وان العكس ممكن ايضا .

بقي ان تعرف اخي القارىء بان الشعر الطلق الذي يعتبر البير اديب رائده هو غير الشعر المنثور الذي كان جبران خليل جبران رائده .

### ادب العـــراق

وسألت البير اديب ..

نشرت « الاديب » منذ صدورها وما تزال ، النتاجات الادبية لادباء عراقيين فما هو رأيك في الادب العراقي من خلال ما ينشر في «الاديب» فقال :

هذا صحيح ، فقد كانت غايتي من اصدار الاديب ان اجعل منها بالدرجة الاولى مجلة عربية جامعة غير اقليمية ففتحت ابوابها لكل كاتب عربي من الخليج الى المحيط ، وكانت هذه المحاولة غير مألوفة في مجلاتنا الثقافية وكان نصيب العراق كبيرا في تلك المساهمة ، ذلك ان نهضة ادبية كان يتاجج بها العراق ، لا سيما هؤلاء الشبان الشعراء والقصاصين الطليعيين . ولا اريد هنا ان اذكر اسماءهم ، فالكل يعرفونهم ، اما في الحقبة الحالية فانني اشعر ان في العراق فتورا ان لم اقل ركودا ، ولعل ذلك يعود الى الظروف التي مر بها العراق ، لكن بوارق الامل ما زالت تلمع من خلال ما يصلني من نتاجات الشباب .



### ادبنـــا والعالـــم

وعن مستوى حركة الشعر العربي الحديث نسبة الى الشعر العالمي قال :

لا شك ان الشعر العربي الحديث بدأ ياخذ طريقه الى خارج عالمنا العربي ، وقبل ذلك كان من النادر جدا ان يترجم الشعر العربي الى لغات اجنبية ، ويعود ذلك الى ان الشعر الكلاسيكي عند تجريده من الوزن والقافية اي من موسيقاه يفقد كثيرا ويصبح اذا ترجم لا رونق فيه ، ومن المعلوم ان الشعر الحديث اصبح يعتمد الان على الفكرة والموضوع اكثر من اعتماده على وحدة القصيدة مما يجعل ترجمته ممكنة وذات معنى . لذا فقد ترجم كثير من الشعر العربي الحديث الى عدة لغات .. ولو شئنا تقييم الشعر الحديث بالنسبة الى الشعر العالمي فيجب الاعتراف اننا لم نبلغ القمة بعد ، وان بلغنا تقدما محسوسا .

### الصحافـــة الادبيـــة

بعد هذا عدت مع الاستاذ البير للحديث عن الصحافة الادبية فكان سؤالي :

هل تعتقد ان الصحافة الادبية في الوطن العربي قد ادت الدور الملقى على عاتقها في هذه المرحلة من تاريخنا ؟ فقال :

لا شك في انها اسهمت اسهاما كبيرا في تحقيق ذلك ، وان لم تكن قد حققته كاملا ، ويعود ذلك الى ظروف عدة منها الصعوبات المالية .

وهنا تحدث عن الصعوبات التي تواجه مجلته فقال :

من دعائم الصحافة المادية هو الاعلان الذي يدر دخلا يساعد الصحيفة على الاستمرار في الصدور ، وتعاني المجلات الادبية ـ بصورة عامة ـ ازمة في هذا الباب اذ ان المعلنين يعرضون عنها ، فتضطر المجلات الادبية الى الاعتماد على البيع والاشتراكات والاعانات الحكومية وهذه الاخيرة مفقودة عندنا في لبنان ـ مع الاسف ـ مما يجعل المجلات الادبية تعاني من ازمة مالية .

وعن الاسس التي يراعيها عند نشره موضوعا ادبيا في مجلته قال :

الاساس الذي نعتمده هو الاجادة ، وان كنا نتسامح احيانا في حالة ايجادنا بادرة تدل على استعداد ابداعي .. ولا ننظر الى الاسماء اطلاقا ، فكثيرا ما ننشر لمغمورين ويكون ذلك نتاجهم الاول وهكذا عرفت « الاديب » دائما ، فكم من شاعر او قاص بدأ في «الاديب» واصبح فيما بعد من المعروفين .

### الشعـــر الطلـــق

قلت بعد هذا للاستاذ اديب :

بصفتك اول من كتب الشعر الطلق ، فمتى كتبت هذا اللون من الشعر ؟ فقـــال :

يتمتع الشعر الطلق بكل مزايا الشعر من حيث اللوحة والموسيقى والايقاع الداخلي واللفظ الشعري ، وقد نشرت هذا اللون في مصر في صحيفة « السياسة الاسبوعية » وفي « الرقيب » وفي غيرهما منذ عام ١٩٢٧ ، وقد واصلت نشره في لبنان في مجلاتها المختلفة لا سيما مجلة « المعرض » كما نشرت في « الاديب » مجموعة غير قليلة منه .

بعد ذلك ، وفي الختام طلبت منه ان يقول كلمته للشباب فقال :

ادعو الشباب ان لا يستعجلوا النشر وان يكونوا مخلصين نحو انفسهم ومجتمعهم فيما يكتبون سيما ونحن في عصر تخصص علمي ، فلا بد ازاء هذا من الاطلاع على الكثير في شتى شؤون المعرفة .

**هادي نعمان الهيتي**

**جريدة « الجمهورية » ـ بغداد**